وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة ابن خلدون – تيارت –
كلية العلوم الإنسانية و العلوم و الاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية
تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط
مذكرة مقدمة لنيل درجة الماستر الموسومة ب:

مصر و الشام من خلال كتابات الرحالة المغاربة

رحلة ابن جبير أنموذجا

من إعداد الطالبين:
- حاجي مجيد
- بلكاوي عمر

إشراف الأستاذ:
- بوخلوة حسين

لجنة المناقشة:

الأستاذ بلقاسم بن عودة	رئيسا
الأستاذ بوخلوة حسين	مشرفا
الأستاذ زلماط الياس	مناقشا

السنة الجامعية: 2020/2019

شكر و تقدير

الحمد لله الذي أنار لنا درب العلم و المعرفة و وفقنا لهذا العمل المتواضع.

نتوجه بجزيل الشكر و الامتنان إلى كل من ساعدنا من قريب أو من بعيد على انجاز هذا العمل.

و نخص بالذكر الأستاذ المشرف "بوخلوة حسين" الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته و نصائحه.

و لا يفوتنا أن نشكر كل أساتذة قسم العلوم الإنسانية، و كل من أخذنا عنه و لو حرف واحد،

نشكره جزيل الشكر.

إهداء

أهدي ثمرة جهدي

إلى أمي الغالية نبع الحنان التي سهرت على نجاحي منذ بداية مشواري الدراسي.

إلى أبي العزيز قدوتي في هذه الحياة الذي كان سندا و معينا لي دائما.

إلى جميع إخوتي و أخواتي كل باسمه و أخص بالذكر خيرة و دعاء.

إلى براعم عائلتنا: عبد القادر، سيرين، شمس الدين، محمد عبد الرحيم، بشرى، ريتاج، عبد الهادي، محمد إسلام.

حاجي مجيد

إهداء

أهدي ثمرة جهدي

إلى أمي العزيزة الغالية على قلبي التي لم تبخل علي يوما بدعائها.

إلى أبي الغالي الذي كان سندا لي.

إلى جميع إخوتي كل باسمه.

إلى جميع زملائي كل باسمه.

بلكاوي عمر

قائمة المختصرات

ص	صفحة
هـ	هجري
م	ميلادي
تر	ترجمة
تح	تحقيق
تع	تعليق
د . د . ن	دون دار نشر
د . م . ن	دون مكان نشر
ط	طبعة
د . ط	دون طبعة
د . ت	دون تاريخ
مر	مراجعة
ج	جزء
مج	مجلد

مقدمة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد الطاهر الأمين، الذي أخرج العباد من ظلام الجهل والشرك إلى نور الإسلام الخالد وعلى آله وصحبه أجمعين.

شهدت مصر وبلاد الشام بوجه خاص هجمات شرسة قادها الغرب الأوروبي في العصور الوسطى ضد المسلمين في المنطقة، واتخذوا من الدين شعارا له، يخفي أغراضهم الحقيقية المتمثلة في الاستعمار والسيطرة الاقتصادية وعلى ذلك فإن أهمية دراسة هذه الحركة لا تقتصر على الناحية العسكرية فحسب بل هي بالأحرى دراسة العلاقات بين الشرق والغرب في شتى جوانبها، إذ أن العلاقات بين الطرفين الإسلامي والصليبي لم تكن دائما علاقات حرب وصراع، فقد تخللها نوع من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وحدث نوع من تبادل المؤشرات.

ومن أهم الرحالة الذين تناولوا تلك الجوانب ابن جبير الأندلسي الذي سميت رحلته تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار والتي شملت معظم أجزاء بلاد الشام ومصر في تلك الحقبة حيث أعطانا صورة واضحة عن الأحوال العامة السائدة فيها، وجاء عنوان دراستنا موسوما بـ: **مصر وبلاد الشام من خلال كتابات الرحالة المغاربة , رحلة ابن جبير أنموذجا.**

يعد أدب الرحلات فن من فنون الأدب العربي في المقام الأول، ثم مصدر من المصادر المساعدة على كتابة التاريخ، إذ تصف لنا كل ما شاهده وعاينه الرحالة خلال رحلاتهم،ونقدهم لبعض المظاهر السائدة في ذلك العصر، فنصوص مصنفاتهم تعتبر مادة تاريخية تحتوي على معلومات دقيقة ، ومن هنا جاءت أهمية الموضوع الذي يقوم بدراسة إقليم مصر والشام من خلال كتابات الرحالة ابن جبير الأندلسي الذي عاش في القرن 6هـ/ 12م، دراسة تاريخية مع إعطاء لمحة عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر والشام من خلال ما ذكرته نصوص رحلته.

اعتبرت هذه الفترة من أهم الموضوعات التي حظيت باهتمام المؤرخين بسبب أحداثها ونتائجها التي كانت مجالا واسعا لدراسة والبحث، ومن الذين قاموا بدراسة مبهمة ودقيقة في هذا المجال: ابن جبير في رحلته الذي يعتبر مؤلفا نفيسا لا غنى عنه للمؤرخين والجغرافيين وكل من أراد الاطلاع على أحوال تلك الحقبة حيث ضمت بين ثناياها معطيات كثيرة، وعلى هذا الأساس حاولنا معالجة الإشكالية تتعلق بأهم هذه المعطيات التي يمكن أن توفرها الرحلة من أجل دراسة موضوع بلاد الشام ومصر.

واندرجت تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات:

- من هو ابن جبير؟
- و فيما تكمن الإضافة التي قدمتها رحلة ابن جبير للدراسات التاريخية؟
- وكيف كانت نظرة ابن جبير للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر و بلاد الشام؟

من خلال بحثنا عن الدراسات السابقة في نفس الموضوع لم نتحصل على دراسات مستقلة خصصت له في فهارس مكتبة الجامعة التي اطلعنا عليها ولا في المصادر المتحصل عليها وإن وجدنا بعض منها فهي في شكل مختصر لا تتجاوز بضع صفحات لم توفي الموضوع إلا أننا استفدنا من بعضها ومن هذه الدراسات.

1. عبد الرحمان حميدة، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم.
2. أماني بنت سعد الحربي، في مصر من خلال كتابات الرحلة المغربية.
3. أبي عبد الرحمان محمد بن علي بن أحمد ابن سعد العبدري، رحلة العبدري.
4. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيين والممالك في مصر والشام.
5. أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون.

وفيما يخص المنهج المتبع في دراسة هذا الموضوع، اعتمدنا على المنهج التحليلي والمنهج التاريخي الوصفي أين قمنا بتحليل الرحلة أولا، وما تضمنته من معلومات تفيد في موضوعنا، وثم وصف الظاهرة التي عالجها ابن جبير وشرح الأوضاع التي كانت سائدة في مصر وبلاد الشام في تلك الفترة.

واقتضت طبيعة دراسة الموضوع تقسيمه إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وقائمة الفهارس.

أما الفصل الأول: فعنوناه: ابن جبير ترجمته وعصره و دراسة رحلته، تضمن تعريف والترجمة لرحلة ابن جبير وتناولنا العصر الذي عاش فيه، مع إبراز الكيانات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية التي كانت قائمة في تلك الفترة في عهد دولة الموحدين، كما تم في هذا الفصل استعراض لرحلته بنوع من التفصيل حيث أشرنا إلى أهم الرحلات التي قام بها إلى المشرق و أسبابها و دوافعها، بالإضافة إلى الطريق الذي سلكه ابن جبير , ثم أبرزنا قيمتها العلمية و الأدبية.

أما الفصل الثاني: فجاء موسوما بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر خلال رحلة ابن جبير الذي تضمن الجانب السياسي، ثم تطرقنا إلى الأوضاع الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، ثم تناولنا الأوضاع الاجتماعية و الجانب الديني، و في الأخير اشرنا إلى ابرز معالم العمران في المنطقة .

أما الفصل الثالث: الذي جاء معنونا بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام من خلال رحلة ابن جبير فتحدثنا فيه على أوضاع بلاد الشام السياسية و الحربية، ثم تطرقنا إلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فأشرنا إلى أوضاع التجارة والاقتصاد مع إعطاء لمحة عن أحوال الأسواق ومراكز التخزين والتسويق في ذلك العصر، بالإضافة إلى إبراز بعض العقائد و المذاهب السائدة في ذلك العصر، ثم قمنا بإيراد بعض العادات والتقاليد السائدة في المنطقة، ثم تطرقنا إلى الجانب العمراني وحاولنا إبراز أهم المراكز العمرانية في ذلك العصر، و في الأخير قمنا بالإشارة إلى أوضاع المغاربة المقيمون في المنطقة .

ثم ختمنا بحثنا بخاتمة تضمنت مجموعة من الاستنتاجات العامة حول الموضوع.

و بما أن موضوعنا تناول أحوال بلاد الشام ومصر من خلال رحلة ابن جبير فقد اعتمدنا بالأساس على هذا المصدر، بالإضافة إلى مجموعة من المصادر والمراجع المدعمة التي تناولت موضوعنا بشكل عام.

وفيما يلي أبرزها حسب أهميتها في البحث:

1. جاء على رأسها كتاب الرحلة لابن جبير الذي أفادنا في مختلف جوانب دراستنا، لان البحث قائم على رحلته، فقد أعطى لنا لمحة عامة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر وبلاد الشام إلا انه لم يعطي الأهمية للجانب السياسي و الحربي، بالإضافة إلى استعمال ابن جبير مصطلحات محلية صعب علينا فهمها.
2. الكامل في التاريخ لابن الأثير الذي أفادنا في الجانب السياسي و الحربي إلا انه أعطى معلومات بصفة عامة غير مفصلة.
3. الإحاطة بأخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب الذي أفادنا في التعريف بالرحالة ابن جبير و معرفة أصله و ابرز الصفات التي كان يتحلى بها.

و بالإضافة إلى المصادر السابقة الذكر، اعتمدنا على مجموعة من المراجع أهمها:

1_ تاريخ الأدب الجغرافي للمؤلف كراتشوفسكي، الذي أفادنا في تتبع الرحلة وأهم المستشرقين الذين قاموا بنشرها .

2_ مصر من خلال كتابات الرحالة المغاربة لاماني بنت سعيد الحربي، الذي اعتمدنا عليه في معرفة ابرز الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمصر.

3_ الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، الذي أفادنا كثيرا فيما يخص الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام في تلك الفترة.

وكباقي البحوث والدراسات واجهتنا العديد من الصعوبات نذكر منها:

- استعمال ابن جبير مصطلحات ومفردات باللهجة المحلية لكونه أديب وكاتب مما صعب علينا فهم قصده في غالب الأحيان.
- نقص وقلة الدراسات التاريخية خاصة المتعلقة بالجانب السياسي والحربي في هاذين الإقليمين فمعظم الدراسات السابقة التي اطلعنا إليها تشير إلى ذلك النقص.
- الأزمة الوبائية التي تعرضت لها البلاد كان لها دور بارز في عرقلة عملنا هذا فواجهنا فيه مشاكل.

- الفصل الأول:

- ترجمة الرحالة ابن جبير ودراسة رحلته

ويتضمن ثلاث مباحث:

- المبحث الأول: التعريف بالرحالة ابن جبير.

- المبحث الثاني: العصر الذي عاش فيه ابن جبير.

- المبحث الثالث: دراسة رحلة ابن جبير.

الفصل الأول: ترجمة الرحالة ابن جبير ودراسة رحلته

تطرقنا في هذا الفصل إلى التعريف بالرحالة ابن جبير (مولده، نسبه، تعليمه، أخلاقه وصفاته، مؤلفاته، وفاته) كما تناولنا العصر الذي عاش فيه ابن جبير من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واشرنا إلى الأسباب التي دفعت ابن جبير لشد الرحال نحو المشرق، وتناولنا أيضا الطريق الذي سلكه ابن جبير في هذه الرحلة، وذكرنا أهميتها من الناحية الأدبية والعلمية.

المبحث الأول : ترجمة الرحالة ابن جبير

1) تعريفه:

هو محمد بن احمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد بن جبير ابن احمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام ابن جبير الكناني[1]، يكنى بابي الحسن ،يلقب بالبلنسي لأنه ولد في مدينة بلنسية، كما يلقب في بعض الأحيان بالشاطبي، و ذلك لأنه تلقى تعليمه الابتدائي في مدينة شاطبة الأندلسية [2].

2) مولده و نسبه:

ولد أبو الحسن في ليلة السبت العاشر من شهر ربيع الأول سنة 540 هـ/ 1145 م ببلنسية، وقيل أيضا أن مولده كان سنة 539 هـ / 1144 م[3].

دخل أبو الحسن إلى الأندلس مع جده عبد السلام في طالعة القائد المشهور بلج بن بشر بن عياض القشيري في شهر محرم من سنة 123 هـ، وكان نزوله ب كورة شذونة، وهو من ولد ضمرة بن كنانة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن نزار بن معد بن عدنان [4].

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة بأخبار غرناطة ، تقديم مراجعة و تعليق : بوزيان الدراجي ، دار الأمل للدراسات ،الجزائر ص 641

[2] علي بن عبد الله الدفاع ، رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة التوبة ،(د . م . ن ، د . ط ، د . ت) ص 171

[3] احمد رمضان احمد ، الرحلة و الرحالة المسلمون ، دار البيان المغربي للطباعة و النشر، د.ط ، د.م.ن ، د.ت ص 323

[4] لسان الدين ابن الخطيب ، مصدر سابق ص 641

3) تعليمه:

أتم ابن جبير دراسته في شاطبة حيث كان والده يعمل موظفا فيها، وقد شغف أول ما شغف بعلوم الدين، فسمعها من أبيه، واخذ القران عن أبي الحسن بن أبي العيش، ولكن ميوله برزت في العلوم الدنيوية أيضا، إذ يسرت له مواهبه الشعرية من ناحية أخرى نجاحا في الأوساط الرسمية، مما جعله يحتل منصب كاتب لدى حاكم غرناطة أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن من الموحدين، ولم يلبث أن كسب شهرة كاتبا و شاعرا تروى له العديد من القصائد المتفرقة، فضلا عن ديوان الشعر، كما ترك العديد من الرسائل النثرية التي لها شهرتها في الأدب[1].

4) أخلاقه وصفاته :

وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة بإخبار غرناطة، انه كان أديبا بارعا شاعرا مجيدا سنيا فاضلا، نزيه المهمة، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة [2].

كما نوه المؤرخون عن وفاء وصدق ابن جبير، فمثلا عندما تحدث عن صلاح الدين الأيوبي مدحه بما يليق به كقائد شجاع أشوس ، فابرز صفات العدل والتواضع والنبل وحسن الأخلاق والشهامة والكرم فيه، كما كتب عن بعض العلماء المشارقة والمغاربة الذين يستحقون أن يكتب عنهم، لأنه يرى أن هذا واجب حتمي على كل باحث [3].

وكان ابن جبير قوي العاطفة الدينية يختم كل كلام بالدعاء إلى الله تعالى و التوكل عليه جل جلاله وهذه العاطفة دفعته إلى إرسال الأدعية إلى المدن التي مر بها، فمنها ما يدعو لها بحرسها الله، وعمرها الله، و حماها الله ، و منها ما يدعو لها بدمرها الله إذا كانت تحت سلطان الفرنجة[4]

وكان ابن جبير لا يرد سائله خائبا، بل كان أهل مروءة و معروف قاضيا لحاجة الناس، و في ذلك يقول صديقه المرسي الصنبي الرواية التالية: و اغرب ما يحكى أنني كنت احرص الناس أن أصاهر قاضي غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس فجعلته أي ابن جبير الواسطة، حتى تيسر ذلك، فلم يوفق الله ما بيني وبين الزوجة، فجئته وشكوت له ذلك فقال: انأ ما كان القصد لي في اجتماعكما ولكني سعيت جهدي في غرضك، وها أنا اليوم اسعي أيضا في افتراقكما، إذ هو من غرضك وخرج في الحين، ففصل القضية ولم أر

---

[1] عبد الرحمان حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب و مقتطفات من آثارهم ، دار الفكر ، دمشق و سوريا ، ط 1 ، سنة 1984 ،ص 409

[2] لسان الدين ابن الخطيب ، مصدر سابق ص 642

[3] علي ابن عبد الله الدفاع ، مرجع سابق ص 174

[4] ابن جبير ، تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار (رحلة ابن جبير) دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د.ط ، د.ت ص 6

في وجهه أولا ولا آخرا عنوانا لامتنان ولا تصعيب ثم انه طرق بابي، ففتحت له و دخل و في يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنيه، ثم قال يا ابن أخي، اعلم إني كنت السبب في هذه القضية، ولم اشك انك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمك، فبالله أما سررتني بقبوله، فقلت له: أنا ما استحي منك في هذا الأمر، و الله إن أخذت هذا المال لأتلفته فيما أتلفت فيه مال والدي من أمور الشباب، و لا يحل ل كان تمكنني فيه بعد أن شرحت لك أمري، فتبسم و قال: لقد احتلت في الخروج من المنة بحيلة و انصرف بماله [1].

5) مؤلفاته :

لا نعرف لابن جبير مؤلفا غير كتابه الذي دون فيه أخبار رحلته الأولى في شبه مذكرات يومية، يوجد لها عنوانان مختلفان: " تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار "[2]، و " اعتبار الناسك في ذكر الآيات الكريمة و المناسك "، إلا أن المستشرق الروسي كراتشوفسكي رجح أن عنوان الكتاب ربما كان بكل بساطة (رحلة الكناني) ، نسبة إلى القبيلة التي ينسب إليها [3].

كما دون ابن جبير ضمن مصنفاته مجلد من الشعر على قدر ديوان أبي تمام حبيب بن اوس و منه جزء سماه " نتيجة وجد الجوانح في تايين القرين الصالح " في مراثي زوجته أم المجد، و منه كذلك جزء سماه " نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان "، كما له ترسيل بديع و حكم مستجادة على حسب قول لسان الدين ابن الخطيب [4]

6) وفاته :

تجمع المصادر أن الرحالة ابن جبير بعد قيامه برحلته الثالثة إلى بلاد المشرق في سنة 601 هـ / 1204 م حزنا على وفاة زوجته عاتكة أم المجد التي كان يحبها حبا شديدا ، لم يرجع إلى مسقط رأسه مرة أخرى بعد هذه الرحلة، بل أمضى ما بقي من عمره متنقلا بين مكة و بيت المقدس و القاهرة و الإسكندرية مشتغلا بالتدريس و الأدب، إلى أن لقي ربه عام 614 هـ / 1217 م في هذه المدينة الأخيرة [5].

---

[1] احمد رمضان احمد ، مرجع سابق ص 330

[2] عبد الرحمان حميدة ، مرجع سابق ص 410

[3] كراتشوفسكي اغناطيوس يوليانوفيتش ، تاريخ الادب الجغرافي ، تر : صلاح الدين عثمان هاشم ، دار الثقافة في جامعة الدول العربية ، د.م.ن ، د.ط ، 1997 م ص 299

[4] لسان الدين ابن الخطيب ، مصدر سابق ، ص 647

[5] عبد الرحمان حميدة ، مرجع السابق ص 410

المبحث الثاني : العصر الذي عاش فيه ابن جبير

1– الجانب السياسي و الحربي :

أ– الجانب السياسي :

بعد انهيار دولة المرابطين في المغرب و الأندلس على يد عبد المؤمن زعيم الموحدين، عمل هذا الأخير على توطيد عرشه بالمغرب بسحق الخارجين عليه، كما عزم على فتح الأندلس كلها من يد خصومه من المسلمين و من النصارى، و قد استطاع الظفر على آل حماد في المغرب الأوسط، و على الإفرنج النورمانيين الذين كانوا قد افتتحوا شاطئ افريقية الشمالي، واستولوا عليه على تونس والمهدية، أن يدفع حدود دولته من الشرق إلى ما وراء القيروان، وغدت بذلك دولة الموحدين أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين.

و كانت تحد عندئذ من الجنوب بالصحراء الكبرى، ومن الغرب بالمحيط الاطلسي ومن الشرق بصحراء لوبية التي تفصلها عن مصر، وأما من الشمال كان يحدها البحر الأبيض المتوسط، وقد رأى عبد المؤمن قبل أن يتابع الفتح في الأندلس بكل قواه من الحزم و الفطنة، أن يضع للدولة الجديدة نظما موطدة الدعائم، وقام بإنشاء مدرسة لإخراج رجال السياسة و موظفي الحكومة و قادة الجيش في مدينة مراكش، وكان تضم قرابة ثلاثة ألاف طالب من أبناء الأكابر في وقت واحد، وكان يطلق عليهم اسم طلبة العلم أو الحفاظ نظرا لأنهم فضلا عن حفظ القران الكريم، كانوا يدرسون رسائل المهدي و يحفظونها عن ظهر قلب، وكذلك كانوا يدرسون عدة كتب في إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة، وكان عبد المؤمن يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره و يمتحنهم فيما درسوا ويطرح عليهم الأسئلة بنفسه، تشجيعا لهم على اجتهادهم، و لكي يجعل منهم رجالا أكفاء لعلهم ينفعون البلاد سواء في العلم أو الحرب[1]

ب–الجانب الحربي :

اهتمت الدولة الموحدية بالجانب العسكري، فقد كونت جيشا قويا لا يقهر مما جعل صلاح الدين الأيوبي يستنجد بالمنصور الموحدي لمحاربة الصليبيين.

عناصر الجيش الموحدي :تعددت عناصر الجيش الموحدي في دور ازدهار الدولة، وقد كان الجيش مقتصرا على فبائل الموحدين في بداية الأمر، ولكن مع تبدل مفهوم التوحيد دخلت عناصر كثيرة في الجيش الموحدي، ومن المفيد أن نستعرض هذه العناصر[2].

[1] يوسف أشباح ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين ، تر: و تع : محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ،ط 2 ، القاهرة ، 1996 م ص 49-50-51

[2] عز الدين عمر موسى ، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم و نظمهم ، دار الغرب الاسلامي ، د.ط ، د.م.ن ، د.ت ، ص 217

– القبائل الموحدية :

هي القبائل التي يتكون منها هيكل الدولة الموحدية و التي تقوم على أسس مدنية وعسكرية على السواء و هذه القبائل تنتمي إلى قبيلة مصمودة منها التي بايعت المهدي لأول مرة وتسمت بالموحدين وهي:" هرغة قبيلة المهدي، كومية، قبيلة عبد المؤمن، تينملل هنتاتة جنفيسة، جدميوة "، وانظم تاليهم قبائل أخرى من قبائل المصامدة مثل: هسكورة ودكالة وهيلانة وحاحة " [1] .

– العرب:

عرف المغرب العرب كجند منذ الفتح الإسلامي، ثم ضعف دورهم، و يبدو أن المرابطين استخدموا عددا من العرب في جيوشهم غير أن العرب لم يقوموا بدور عسكري كبير لقلة عددهم، و مع الموحدين برز دور العرب في الحياة العسكرية، وكانوا من عرب الزحفة الهلالية، فمنذ أن فتح عبد المؤمن منطقة بجاية التي سيطر عليها العرب الهلالية على نواحيها، شعر بخطرهم، وعلى الرغم من انه قد هزمهم و استقدم عددا من أشياخهم إلى المغرب، غير انه لم يضمهم إلى الجيش الموحدي إلا بعد فتح افريقية سنة 555 هـ / 1153م [2].

– الاغزاز :

هم جنس من الترك، تقع بلادهم في أقصى المشرق على تخوم بلد الصين، في ثغور اذربيجان، جاء اسمهم من الاسم العربي لقبائل " الاوغوز " التركية ، عرفوا في المصادر العربية بأسماء عديدة منها " الترك و الأكراد " دخلوا بلاد المغرب على شكل رقيق بأعداد قليلة، وفي عهد الموحدين غزو بلاد المغرب من جديد، وفي ذلك يقول المراكشي " و في أيام ولاية يعقوب، إما سنة 82 أو 83 ورد علينا البلاد الغز من مصر و كان أول من ورد علينا مملوك يسمى قراقوش "، وعندما نزل الغز ببلاد المغرب تحالفوا مع بني غانية واتفقا على تقسيم المغرب إلا أن ذلك لم يتم، حيث هزمهم الموحدون وضموهم إلى جيشهم [3].

– الروم:

كان المسلمون في الأندلس يستخدمون الروم في جيوشهم منذ خلافة بني أمية في قرطبة، وقلدهم خلفائهم من ملوك الطوائف لاسيما بني هود، وظل بنو مردنيش يستخدمون أولئك النصارى إلى أن فتح الموحدون بلادهم، ومن الراجح أن الموحدين احتفظوا بالجند الرومي الذي انظم إليهم اثر سقوط الدولة المرابطية لان

[1] مزوزية حداد ، سياسة الدولة الموحدية من خلال الرسائل الديوانية ، أطروحة ماجستير، قسم التاريخ و علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية و الإسلامية، جامعة الحاج لخضر – باتنة – (الجزائر) 2012 م ص 80

[2] عز الدين عمر موسى ، مرجع سابق ص 221-222

[3] مزوزية حداد ، مرجع سابق ص 84

كتيبة من هؤلاء الروم كانت ضمن الجيش الموحدي الذي أرسل لقتال الماسي بعد فتح مراكش 541 هـ / 1147 م، ويبدو أن يوسف بن عبد المؤمن كان يستكثر من الروم في جيشه، إلا أن وجود الروم في الجيش الموحدي أصبح كبيرا ولعب دورا خطيرا في الانحلال لان الكثير من الطامعين في الخلافة من بني عبد المؤمن أصبحوا يستعينون بالروم لانتزاع الحكم أو تثبيته [1].

– السودان:

ابتداء من خلافة يوسف بن عبد المؤمن كان للسودان فرقة قائمة بذاتها في الجيش الموحدي وكانوا يقومون بردم خنادق المدن المحاصرة أو هدم أسوارها بعد فتحها، ومن السودان من كان حرس الخلفاء و يبدو أنهم كانوا يمشون بين يدي الخليفة خلال سير الجيش، ويضربون دائرة حول قبته أثناء المعارك، إضافة إلى خدمة الأمير المنزلية في القصر وعرفوا في عهد ابن تومرت باسم "أهل الدار " [2].

– الأندلسيون :

قبيل فتح مراكش بدا المنتزون في نواحي الأندلس يدخلون في " التوحيد " واقر عبد المؤمن من " يوحد " على إدارة منطقته التي كان يسيطر عليها، واحتفظ كل منتز بجيوشه التي كانت تحت إمرته، ولكن بعد أن ثارت العناصر الأندلسية على الموحدين، أرسل عبد المؤمن عناصر من الموحدين لتقيم في الأندلس، وهذا لا يعني انه صرف الجنود الأندلسيين عن العمل العسكري فقد تركهم في الجيش ولكن في مراكز ثانوية ، وفي كل الحملات العسكرية في الأندلس إلا ونجد ذكرا للجند الأندلسيين، ويبدو أن عبد المؤمن اراد الاستفادة منهم في قتال النصارى لان الأندلسيين اعرف بمنطقتهم [3].

2– الجانب الاقتصادي :

يمكن حصر النشاط الاقتصادي للدولة الموحدية إلى مجالين، الفلاحة والصناعة، بالإضافة إلى النشاط التجاري كنقطة انطلاق لتوسيع مجال المبادلات التجارية نحو المستوى الخارجي.

أ– النشاط الفلاحي :

تعتبر الفلاحة من ابرز أنماط المعاش في حياة المجتمع المغربي في العصر الوسيط ،فأغلبية السكان يقطنون البادية، فكان ذلك داعيا إلى تكون علاقة وطيدة بين الإنسان الموحدي والأرض، وذلك الارتباط يرجع إلى

[1] عز الدين عمر موسى ، مرجع سابق ص 227-228

[2] مزوزية حداد ، مرجع سابق ص 87

[3] عز الدين عمر موسى ، مرجع سابق ص 221

سياسة النهوض بهذا القطاع من طرف الحكومة الموحدية، من خلال مجموعة من المشاريع منها: تطوير الآليات المساهمة في الإنتاج الفلاحي، وتنظيم الدولة لملكية الأرض، وإنشاء السدود والبحيرات الموجهة إلى سقي المنتوج الفلاحي، وجلب الخلفاء للكثير من أنواع الأشجار المثمرة التي لا تتوفر في الأقاليم الخاضعة لسلطة الدولة، وتشجيع الاستثمار بتقديم بعض المساعدات المالية للطلبة من اجل تنميتها ... وغير ذلك من التدابير التي اتخذتها الدولة من اجل تحقيق الاكتفاء الذاتي، وتنمية مجال التجارة الداخلية والخارجي[1].

ب– النشاط الصناعي:

الصناعات الفلاحية:

وتندرج تحتها الصناعة الغذائية وما يمكن التركيز عليه من هذه المادة هو زيت الزيتون المستخرج من ثمار الزيتون وهو الأكثر شيوعا دون غيره من الزيوت الأخرى، بالإضافة إلى صناعة السكر التي عرفت خلال فترة الموحدين انتعاشا كبيرا، نظرا لانتشار مزارع قصب السكر في الكثير من المناطق الخاضعة إلى سلطانها و الصناعات النسيجية فقد تركزت مناطق إنتاجها بالنسبة للأندلس في المرية، وحيث كان جل أهلها صناع نسيج وحياكة والبيرة التي كان كتانها يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين، أما في المغرب فقد اشتهرت بالنسيج مدينة سلا والسوس وغرب جبال درن، ومنطقة قبائل لمطة، وسجلماسة وتلمسان ووجدة، والظاهر أن منتوجات هذه الأخيرة تعتبر من أحسن المنسوجات في المنطقة [2].

بالإضافة إلى صناعة الورق التي ترتبط بالمواد الفلاحية كالقطن والكتان، إلا انه هناك إشارات شحيحة عن هذه الصنعة، ظهرت في الأندلس في مدينة شاطبة في بداية القرن السادس هجري، وكانت هي الممون الأساسي لبلاد المشرق والمغرب، وصناعة الجلود التي تعتبر من الصناعات القديمة في المنطقة، حيث كانت توجه منتجاتها للاستهلاك المحلي بالنسبة للمناطق الريفية، بينما كان الإنتاج في المدينة يوجه للتسويق حيث كان يلعب دورا هاما في المبادلات التجارية، وانتشرت هذه الصناعة خلال القرن السادس في مناطق كثيرة من بلاد المغرب والأندلس على السواء، حيث ازدهرت في مراكش، وسلا وفاس، حيث بلغت دور الدباغة في مدينة فاس خلال عهد الخليفة المنصور 83 دارا للدباغة، بالإضافة إلى الصناعات الخشبية بحيث دعت الحاجة إلى انتشار هذه الصناعة، وساعد على ازدهارها توفر بلاد المغرب والأندلس على مساحة هائلة من الغابات المختلفة الأشجار، والحديث عن هذه الصناعة لا يتعلق بدوره في مجال المبادلات التجارية بقدر ما يتعلق بأهميته في المنشات التي تعتبر أساسا للمؤسسات التجارية كالحوانيت و القيساريات والفنادق، أو

[1] بغداد غربي ، العلاقات التجارية للدولة الموحدية ، أطروحة دكتوراه ، قسم الحضارة الإسلامية ، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية ، جامعة – وهران 1- (الجزائر) 2014 م ص 23 - 24

[2] بغداد عربي ، مرجع سابق ص 43-45-46

أساسا لبعض المنشات المسهلة لحركة القوافل التجارية، كإنشاء الجسور والقناطر أو كمادة أساسية لصناعة السفن التي تعتبر وسيلة التواصل الرئيسية في المبادلات التجارية عبر الطرق البحرية[1].

الصناعات المعدنية:

لقد ساعد على تنوع الصناعات المعدنية ، وفرة المادة الأولية المنتشرة في أرجاء بلاد المغرب و الأندلس ، حيث نجد معدن الحديد بمرسية و المرية ، و ما بين وهران و سبتة بمنطقة تسمى تمسامان ، و ببجاية و بونة والفولاذ ذو النوعية الممتازة باشبيلية ، و الفضة بشنترة غرب الأندلس و النحاس بسوس من بلاد المغرب يستخرج من معدن يسمى توتيا يصبغ به النحاس فيتحول من الأحمر إلى اللون الأصفر ، والكبريت في منطقة بين برقة و طرابلس، كما يتوفر الزئبق بحصن أبال بالقرب من قرطبة، والرخام وخالص المرمر في تونس الذي ورثته من مدينة قرطاجة القديمة، أما معدن الذهب فيقل في هذه المنطقة، حيث ظلت بلاد السودان الممون الرئيسي لبلاد المغرب و الأندلس بهذا المعدن النفيس، ولم تذكر القرن الخامس إلا مركزا واحدا في بلاد المغرب الغربية وصفه البكري بأنه ذو أهمية بالغة في هذا الشأن، وهي منطقة تازة، إلا انه لم يرد لهذا المركز ذكر في مصادر القرن السادس، ولعل ذلك يعود إلى نفاذه من هذه المادة.

كما تجدر الإشارة أن هذه المواد المعدنية كانت تسوق في غالب الأحيان كمادة خام إلى مراكز تصنيع أخرى، وذلك راجع إلى التكاليف الباهظة التي تتطلبها هذه العملية من حيث اليد العاملة، و مصاريف التصنيع [2].

ج- النشاط التجاري:

ازدهرت التجارة الداخلية في الدولة الموحدية بفعل عدة عوامل منها إشاعة الأمن واهتمام الخلفاء بتامين الطرق التجارية، وحماية التجار، بحيث أن المهدي توعد بقتل كل من خالف هذا الأمر، وانزل العقوبات الصارمة على اللذين يعتدون على التجار أو قطع الطريق عليهم، وسار خلفائه على نهجه، حيث قطع عبد المؤمن المغارم و المكوس و القبالات التي وجدها، مما نشط حركة البيع والشراء بالبلاد، كما أن ولاة الأمر وفروا سبل الإقامة للتجار بإنشائهم عدة فنادق لإيواء التجار و تخزين السلع لتوزيعها بعد ذلك بالجملة، و مما ساعد كذلك على ازدهار التجارة الداخلية في المغرب تلك الطرق التي كانت تربط معظم المدن الغربية ببعضها البعض، لذلك ظهرت في بلاد المغرب عدة مراكز تجارية منها العاصمة مراكش التي كانت مركزا

[1] بغداد عربي، مرجع سابق ص 47-48-49-50

[2] نفسه ص 52-53

للتجارة الداخلية بين مدن الشمال و مدن الجنوب، بالإضافة إلى مدينة فاس التي كانت قطبا تجاريا هاما [1].

عرفت الأسواق في عهد الموحدين ازدهارا كبيرا في بلاد المغرب الأقصى، خاصة تلك التي تقام قريبة من المسجد الجامع حيث يزدحم الناس و تنشط حركة البيع و الشراء و يتوفر بها ما يحتاجه رواد المسجد مثل سوق الشماعيين لوجوب الإضاءة بالشموع في المساجد في الصلاة الليلية ، وسوق العطارين ليوفر العطور و البخور، وسوق القباقبية لوجوب الوضوء و سوق الكتب، ويظهر ذلك بوضوح بمدينة فاس.

أما الأسواق التي تسبب ضررا كالتي يخرج منها رائحة كريهة، أو أدخنة، أو أخطار حريق، أو أصوات دوي مزعجة كانت تقام عند أسوار المدينة، من أمثلتها سوق الدباغين، والصباغين، والسراجين، والحدادين، و النجارين[2].

و يمكن تصنيف أسواق المغرب في عهد الموحدين إلى ثلاثة أنواع هي:

– الأسواق الموسمية:

و هي أسواق تتعلق بمناسبات كثيرا ما تغفل عن ذكرها المصادر، إلا ما كان متعلق بحركة الجيوش، وأماكن تواجدها، باعتبار أن الجيوش تحتاج في حركتها إلى مؤن كثيرة لا تستطيع اصطحابها نعها طيلة الحركة العسكرية ، لذلك كان التجار يقيمون الأسواق بجانب الثكنات العسكرية، وذلك نظرا لما يجدونه من أرباح نظير ارتفاع الأسعار في مثل هذه المواضع.

– الأسواق الأسبوعية:

يمكن أن نطلق على هذه الأسواق اسم أسواق البادية، كون هذه التجمعات التجارية غالبا ما تختص بالمناطق النائية، يلتقي فيها سكان المناطق القريبة من مقر السوق، تسمى هذه الأسواق غالبا بأسماء الأيام التي تقام فيها، كسوق الأحد بين بجاية و القلعة، و قد يعقد سوقان في يوم واحد، كما كان الحال بالنسبة لمدينة درعة في المغرب الأقصى .

– أسواق المدن:

تعتبر مؤسسة السوق من بين المرافق الأساسية التي كانت تدرج في مخطط المدينة العام قبل إنشائها، وسوق المدينة يقع مركزها حيث تحيط به بعض المرافق الأخرى المتعلقة به كالفنادق و المخازن و محلات الوكلاء و

[1] مزوزية حداد ، مرجع سابق ص 93-94

[2] مسعد محمد عبد الله، مجلة كلية الآداب، اسواق المغرب الأقصى عصر دولة الموحدين العدد 29 ، يوليو 2012م ، قسم التاريخ و الحضارة ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالإسماعيلية، جامعة قناة السويس، مصر، ص 338-339

السماسرة، كما تجدر الإشارة إلى أن الموحدون اعتنوا بتشييد هذه الأسواق اعتناء فائقا، بل كانت تعبر عن نمط العمارة الراقية في العهد الموحدي[1].

3– الجانب الاجتماعي:

أظهرت الدولة الموحدية اهتماما بالغا بالجانب الاجتماعي لا سيما في خلافة المنصور الذي اهتم بأحوال المرضى فشيد مارستان دار الفرج في مراكش، وأجرى له ثلاثين دينارا كل يوم برسم الطعام، خارجا عما تكلفه من أدوية وصيادلة وأطباء وثياب ليل ونهار للصيف والشتاء للمرضى، ومن كان فقيرا كان يعطى مالا يكفيه حتى يستقل،كما أن المنصور ربط جاريا للجذماء و العميان.

كما يظهر الاهتمام بالفقراء من الهبات التي كانت تعطى لهم في المناسبات، يضاف إلى هذا انه وقت المجاعات كانت أبواب المخازن تفتح لإطعام الفقراء مجانا، وللأقوياء بثمن وهذا عدا عن المساعدات في الكوارث مثلا: بناء الأسواق إذا أصابها حريق أو فيضان.

ومن مظاهر الرعاية التي تكفلها الدولة الاهتمام بالطفولة، فقد كان المنصور يأمر بختن أطفال مراكش و يجعل منهم دينارا من ذهب ودرهما من فضة وحبة من فاكهة وقد صرف في هذا المشروع ذات مرة ألف دينار وألف درهم، و يبدو انه كان يعطي رعاية خاصة للأيتام.

ولم تكن المساعدات وفقا على رعاية الدولة الموحدية فقط، بل كان الصرف يشمل حتى الغرباء لا سيما النابهين منهم فيربط لهم العطاء وتكثر الهبات [2].

كما عمل خلفاء الدولة الموحدية على محاربة الآفات الاجتماعية، بحيث أن عادة شرب الخمر كانت منتشرة في المجتمع المغربي خلال القرن السادس هجري، شمل حتى النساء مما جعل ابن تومرت يعمل جاهدا على محاربة هذه المنكرات منذ البداية وحارب الخمر واللهو والدفوف عندما دخل إلى فاس قال لأتباعه :" اخرجوا واقطعوا مقارع من شجر التين الذي أسفل الوادي، الذي ينتفع به اقبلوا في سرعة... حتى وصلنا زقاق بزفالة قال لنا تفرقوا في الحوانيت، وكانت الحوانيت مملوءة دفوفا... ومزامير و عيدانا و روطا و اربية و كيتارات و جميع مصادر اللهو، فقال لنا المعصوم : اكسروا ما وجدتم من اللهو ".

و لقد افتى في وجوب إراقة كل المسكرات و كسر الأواني، ومنع صنع المسكرات داخل المنازل، وأمر بالنظر في الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها ومدمني شربها ومستعمليها، فيراق مسكرها، ويقطع منكرها [3].

---

[1] بغداد غربي ، مرجع سابق ص 68-69-70

[2] عز الدين عمر موسى ، مرجع سابق ص 293

[3] مزوزية حداد ، مرجع سابق ص 180

المبحث الثالث : دراسة رحلة ابن جبير

1- أسباب الرحلة :

السبب الرئيسي لرحلة ابن جبير إلى المشرق هو زيارة البقاع المقدسة وذلك لمرجعيته الدينية بالإضافة إلى حب الاطلاع على أماكن أخرى من البلاد الإسلامية.

و هناك دافع قوي لرحلة ابن جبير إلى البقاع المقدسة، وهو أن حاكم غرناطة أبي سعيدابن عبد المؤمن استدعاه لان يكتب عنه كتابا، وهو على شرابه، فمد إليه بكاس فاظهر ابن جبير الانقباض و قال: يا سيدي ما شربتها قط، فقال له أبي سعيد: والله لتشربن منها سبعا، فلما رأى العزيمة شرب سبعة كؤوس فملا له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصب ذلك في حجره، فحمله في حجره واضمر أن يجعل كفارة شربهِ الحج بتلك الدنانير[1].

فباع بعض عقاراته و أضاف ثمنها إلى عطية الأمير، و ما هي إلا أيام حتى استأذن من الأمير في الحج، و لكيلا يحيل دون سفره ، ابلغه انه اقسم قسما لا رجعة فيه أن يحج في تلك السنة فإذن له [2].

و هذه الرواية إن دلت على شيء فإنما تدل على تدين ابن جبير وعلى ورعه وتقواه كما تدل على حنكته في الخروج من الورطة التي ورطه فيها أبي سعيد، وذلك بالتكفير عن ذنب شرب الخمر بالحج إلى بيت الله الحرام [3].

كما قام ابن جبير برحلة ثانية في عام 585 هـ \ 1189 م، يعود سببها انه عندما بلغه فتح بيت المقدس علي يد صلاح الدين الأيوبي عام 583 هـ \ 1187 م، الذي تعلقت به آنذاك أنظار المسلمين بطلا يعرف كيف يحقق الانتصارات، فقرر الرحيل إلى بلاد الرجل و استمرت هذه الرحلة سنتين، ولكننا لا نملك أي تفاصيل عنها[4].

ثم قام ابن جبير برحلة ثالثة وأخيرة عام 601 هـ \ 1204 م، وهو في العقد السابع من عمره ، بدافع حزنه على وفاة زوجته عاتقة أم المجد، بنت الوزير أبي جعفر الوقشي، وكان كلفا كلف بها، فعظم وجده عليها، فوصل مكة وجاور بها طويلا، ثم بيت المقدس،ثم تحول بمصر والإسكندرية فأقام يحدث ويأخذ عنه إلى أن لحق بربه [5].

---

[1] احمد رمضان احمد ، مرجع سابق ص 329

[2] عبد الرحمان حميدة ، مرجع سابق ص 409

[3] احمد رمضان احمد ، مرجع سابق ص 329

[4] عبد الرحمان حميدة ، مرجع سابق ص 410

[5] لسان الدين ابن الخطيب ، مصدر سابق ص 644

2- طريق الرحلة :

اعتمد ابن جبير في رحلته الأولى إلى المشرق على الطريق البحري، وكان انفصاله مع صديقه احمد بن حسان من غرناطة حرسها الله ، للنية الحجازية المباركة، و كان الاجتياز على جيان لقضاء بعض الأسباب و كانت مرحلته الأولى منها إلى حصن القبذاق، ثم حصن قيصرة [1]. ثم منه إلى مدينة استجة ، ثم منها إلى حصن أشونة ، ثم منه إلى شلبر ثم منه إلى حصن اركش، ثم منه إلى قرية تعرف بقرية القشمة، من قرى مدينة ابن السليم ثم منها إلى جزيرة طريف ، و بتيسير من الله عز وجل، واصل ابن جبير في عبور البحر إلى قصر مصمودة ، و منه إلى سبتة فألفى فيها مركبا للروم الجنوبيون مقلعا إلى الإسكندرية، فسهل الله عليهم الركوب فيه، و كان طريقهم في البحر محاذيا لبر لأندلس ، و أرسى المركب بجزيرة سردانية [2].

ومن الصعوبات التي واجهت ابن جبير ومن معه في طريق رحلته العواصف وأهوال البحر، بحيث عصفت عليهم ريح هال لها البحر، و جاء معها مطر ترسله الرياح بقوة،فعظم الخطب و اشتد الكرب، وبلغ اليأس منهم مبلغه، و بقوا على تلك الحال الليل كله، فجاء النهار بما هو اشد هولا و أعظم كربا، وزاد البحر اهتياجا ، و أزيدت الآفاق سوادا فكل ما كان بوسعهم فعله، هو الدعاء إلى الله عز وجل، و لما أسفر الصبح نشر الله رحمته وأقشعت السحاب، وطاب الهواء، وأضاءت الشمس، واخذ البحر في السكون، فاستبشر الناس وعاد الأنس و ذهب اليأس [3].

وبعد رحلة دامت شهرا كاملا على متن البحر، وفي صبيحة يوم السبت التاسع والعشرون من شهر ذي القعدة، اطلع الله عليهم البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرون ميلا، و في أخر الساعة الخامسة كان إرساؤهم بمرسى البلد، وكان نزولهم بفندق يعرف بالصفار بمقربة من الصبانة [4]، ومن الإسكندرية اتخذ سبيله إلى القاهرة، ومنها اتجه جنوبا إلى مدينة قوص، وانتهى إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر، ومن عيذاب عدى البحر إلى جدة في طريقه إلى مكة والمدينة، وفي طريق عودته بعد تأدية فريضة الحج، اجتاز الطريق النجدي إلى الكوفة، وزار بغداد والموصل وعاد بطريق سورية فمر بحلب وحماة وحمص ودمشق وانتهى إلى عكا، حيث استقل إحدى مراكب الفرنجة في طريق عودته، فمر بصقلية وعاد إلى غرناطة سنة 581 هـ / 1185 م [5].

---

[1] ابن جبير ، مصدر سابق ص 7

[2] نفسه ، ص 8

[3] عبد الرحمان حميدة ، مرجع سابق ص 414

[4] ابن جبير ، مصدر سابق ص 12

[5] احمد رمضان احمد ، مرجع سابق ص 331

3- أهمية الرحلة :

يتعرض نمط الرحلات إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ و الجغرافي و علماء الاجتماع و الاقتصاد و مؤرخي الآداب والأديان والأساطير فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم ، و هي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة، فالرحالة وهو يطوي الأرض إثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة، يشاهدها أو يسمعها أحيانا و ينقلها في رحلته، ولا شك أن الرحالين يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظتهم وفي درجة اهتمامهم وفي نوع هذا الاهتمام، كما يختلفون أيضا في درجة صدقهم و أمانتهم، و في تنوع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغايرة التي يخضعون لها، ومع ذلك فان الرحلات تعتبر من أهم المصادر في البحث العلمي مهما كان بينها من اختلاف وتنوع في الاتجاه والتقدير[1].

نال كتاب " رحلة ابن جبير " إعجاب المتخصصين في علمي التاريخ والجغرافيا، لما يحتويه من معارف غزيرة في هذين المجالين، والحقيقة أن كتابه هذا يدل على اطلاع واسع و تكوين علمي متين، ليس فقط في الأدب ولكن في علمي التاريخ و الجغرافية كذلك فقد دعمه بمعلومات مسهبة عن المدن والمسالك و المصانع والأحوال السياسية والاجتماعية و الإنتاج الزراعي، لذا صار كتاب " رحلة ابن جبير " من أهم المصادر الرئيسية للباحثين في كل من التاريخ و الجغرافيا و الأدب[2].

ويذكر " انخل جنثالث بالنثيا " في كتابه (تاريخ الفكر الأندلسي) أن ابن جبير سجل مشاهداته في رحلته المشهورة على شكل أشبه بيوميات سفر صاغها بأسلوب بارع، وصور فيها بكلام سهل بسيط الأحاسيس في المواضع التي زارها ، أو عند مشاهدته الآثار التي رآها، بأسلوب سلس جزل ينم على موهبة أدبية أصيلة، و كل هذا يضيف للرحلة صفة التنوع و الشمول[3].

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن ابن جبير لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا و دونها في رحلته هذه .

كما تميزت رحلة ابن جبير عن غيرها من الرحلات لأصالتها و سلامة أسلوبها ، ولقلة الانطباعات الذاتية التي تحمل بين دفتيها، فهي تحتوي على نمط علمي فريد من نوعه، لذا يعتبرها المؤرخون و الجغرافيون نموذجا

[1] حسني محمود حسين ، ادب الرحلة عند العرب ، دار الاندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، ط 2 ، بيروت لبنان ، سنة 1984 م ص 6

[2] علي بن عبد الله الدفاع ، رواد علم الجغرافيا ص 172

[3] انخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، تر : حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ،ط 1، القاهرة ، مصر ، 1928 م ص 317

يجب أن يحتذى به عند الكتابة عن الرحلات، فقد كان ابن جبير يوجز عندما يتحدث عن المدن و القرى و يسهب عندما يتكلم عن الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الطرق و البحار و الأنهار.

و يلمح " شاكر خصباك " في كتابه (في الجغرافية العربية) أن رحلة ابن جبير تعتبر بحق سجلا أمينا للأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية للبلدان التي مر بها، فضلا عما تميزت به من وصف حي للمدن و عن إشارات تاريخية و طبوغرافية و مناخية ، و الجدير بالذكر ان هذه الرحلة ذاعت شهرتها بين المتأدبين ، و اقتبس منها العديد من الرحالة و المؤرخين، كما اعتبرت من المستشرقين أنها أحسن نموذج لأدب الرحلات في الجغرافية بل إن ابن جبير هو المؤسس لهذا النمط من الكتابة الأدبية الجغرافية [1].

و كان من أوائل من ترجم لابن جبير ، القاسم بن يوسف التجيبي السبتي في كتابه " مستفاد الرحلة و الاغتراب " ، و كذا لسان الدين ابن الخطيب الذي ترجم له في كتابه " الإحاطة بإخبار غرناطة " ، و دون المقري ترجمته لابن جبير في كتابه " نفح الطيب من غصن الأندلس و الرقيب "، وكذالك ترجم له المقريزي فقال: وسمع من أبيه بشاطبة، ومن أبي عبد الله الاصيلي و أبي الحسن بن أبي العيش و اخذ عنه القراءات و عني بالآداب و بلغ فيها و تقدم في صناعة القريض و صناعة الكتابة ونال بها دنيا عريضة ثم رفضها و زهد فيها ، وحدث بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي ألبي عن القاضي عياض ، وتوجه إلى الحج و دخل بغداد و الشام، وسمع بها وقدم مصر فسمع منه الحافظان أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي.

و من المحدثين ترجم له جورجي زيدان في كتاب " تاريخ آداب اللغة العربية "، وكذا خير الدين الزركلي في كتاب " الأعلام بأخبار الإعلام " كما ترجم له كذلك نقولا زيادة في كتابه " الجغرافية والرحلات عند العرب "[2].

كما عني المستشرق الروسي " كراتشوفسكي " عناية خاصة بالرحالة ابن جبير ، و ترجمته له تعتبر من أوسع التراجم الحديثة ، فقال عن رحلته الأولى : أنها الوحيدة من رحلاته الثلاثة التي ترك لنا وصفها على هيئة يوميات في كتاب منفرد وضعه بعد رجوعه حوالي عام 581 هـ / 1185 م و عنوانه غير معروف لنا بالضبط، و يوجد عنوانان تغلب عليهما الصفة هما: " اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة و المناسك " و " تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار " ولكن كلاهما منحول على ما يظهر عليه، و يمكن القول أن

[1] علي بن عبد الله الدفاع، مرجع السابق ص 173

[1] احمد رمضان احمد، مرجع سابق ص 324

عنوان الرحلة كان بكل بساطة " رحلة الكناني "نسبة إلى القبيلة التي ينسب إليها كما اشرنا إلى ذلك سابقا.

و يضيف المستشرق الروسي انه على هذه الرحلة بالذات تعتمد شهرة ابن جبير الأدبية بين الأجيال التالية، و لو أن هذه الشهرة قد اقتصرت بالطبع على المغرب، و قال عن هذه الرحلة أنها تمثل أهمية قصوى في تصوير حياة ذلك العصر ، فهي تقدم وصفا حيا لمصر و الشام عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين بزعامة " نور الدين " و " صلاح الدين " ، كما قام كراتشوفسكي بتشبيه هذه الرحلة بمذكرات " أسامة بن منقذ " ،على الرغم من الاختلاف الكبير الذي بينهما في المنهج و طريقة العرض[1].

كما أشاد المستشرق الروسي بتصوير ابن جبير لحياة مسلمي صقلية ، ففي طريق عودته مر ابن جبير في ديسمبر من عام 1184 م على ساحل صقلية الشمالي من " مسينا " إلى " ترابالي " و بقي هناك إلى غاية شهر فبراير من عام 1185 م يراقب عن كثب مظاهر الحضارة المادية و الروحية لإخوته في الدين ، و المهم في رحلته ليس وصفه لأثار العصور الوسطى الممتازة بصقلية فقط بل أيضا لبلاد النورمان الذي لم يترك لنا الكتاب اللاتينيين المعاصرين شيئا يذكر عنه.

ولقد اعتبر "كراتشوفسكي" رحلة ابن جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي فإذا كان وصفه المفصل للأبنية مملا للقارئ العادي فان أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير مثال ذلك وصفه لجمارك الإسكندرية أو لكارثة السفينة في صقلية، أما عرضه العام فيستهدف الصنعة و الأناقة، وهو كثيرا ما يلجئ إلى السجع الذي يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارئ إلى تكلف الجهد في تفهمه ، كما يشحن كتابته بالاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة و الاطلاع حتى يضحى مفهوما للقارئ ، خاتما حديثه عن رحلة هذا الرحالة الكناني أنها مصنف رفيع الأسلوب يختم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين في هذا العصر[2].

و لقد استفاد من رحلة ابن جبير كبار المفكرين في الحضارة العربية و الإسلامية أمثال : العبدري و البلوي و المقريزي و المقري و ابن بطوطة و غيرهم، فان ابن بطوطة الذي يعتبر أستاذ الرحلات الجغرافية نقل جميع المعلومات الخاصة بكل من حلب ودمشق وبغداد من كتاب " رحلة ابن جبير " و وضعها في مؤلفاته الخاصة بهذا المجال، والجدير ذكره ا ناي باحث يرغب أن يكتب عن الجزيرة العربية أو جزيرة صقلية أو الأندلس فلابد له أن يرجع لكتاب رحلة ابن جبير[3].

---

[1] كراتشوفسكي ،مرجع سابق ص 299

[2] نفسه، ص 300

[3] علي بن عبد الله الدفاع، مرجع سابق ص 174

وحققت رحلة الكناني و نشرت عدة مرات فقد حققها " وليم رايت " سنة 1852 م ثم راجعها بعد ذلك هو و" دوزي "، كما حققها " روبرتسون سميث " ونقحها وطبعها " جويه " سنة 1907 م ، و حقق الجزء الخاص بصقلية منها " أماري "، كما ترجم هذا الجزء كذلك " كلستينو شابرلي " إلى الايطالية سنة 1906 م و قد طبع في مصر النسخة الأوربية [1].

[1] احمد رمضان احمد، مرجع سابق ص 327

الفصل الثاني:

الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر من خلال رحلة ابن جبير.

ويندرج إلى أربع مباحث:

*المبحث الأول: الأوضاع السياسية في مصر أثناء رحلة ابن جبير.

*المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية.

*المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية و الجانب الديني.

*المبحث الرابع: الجانب العمراني.

الفصل الثاني: الأوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية في مصر من خلال رحلة ابن جبير.

تطرقنا في هذا الفصل إلى الأوضاع السياسية في مصر من خلال رحلة ابن جبير ، بالإضافة إلى رحالة آخرين أمثال: ابن بطوطة و ابن رشيد و العبدري ، كما تناولنا الجانب الاقتصادي والاجتماعي، و تحدثنا على الزراعة و التجارة و الصناعة في مصر في العصور الوسطى ، بالإضافة إلى إيراد بعض العادات و التقاليد السائدة في المنطقة، وتناولنا أيضا الجانب الديني، ثم تطرقنا إلى الجانب العمراني مبرزين أهم المراكز العمرانية في المنطقة .

المبحث الأول: الأوضاع السياسة.

وقد دخل ابن جبير مصر خلال رحلته الأولى إلى المشرق في شهر رجب من عام 578هـ/1183م في فترة تعد من أدق وأحرج الفترات التي مر بها المشرق العربي الإسلامي، وفي فترة جهاد القدس ضد الصليب وبقيادة القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، وكان الغرض من الرحلة أن ابن جبير أراد زيارة البقاع المقدسة، وزيارة مصر ومدنها كان من ضمن مخطط الرحلة الحجازية، بمعنى أن مصر لم تكن هدفا ذاتيا بالنسبة للرحالة ابن جبير ومع ذلك فقد اسهوته مصر وحضارتها وأحبها الرجل إلى حد بعيد[1].

وكان أول ما شاهده ابن جبير أثناء نزوله بميناء الإسكندرية سوء معاملة أمناء السلطان للحجيج، حيث أنهم كانوا يقومون بتقييد وجمع كل ما جلب في المركب واستحضار جميع ما كان به من المسلمين واحدا واحدا، وكتابة أسمائهم وصفاتهم وأسماء بلدانهم، وسأل كل واحد عما لديه من سلع ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحثوا عما حل عليه الحول أو لم يحل، وكان أكثرهم مشخصين لأداء الفريضة، ولم يصطحبوا سوى زاد طريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك كله[2].

و وقع التفتيش بجميع الأسباب ما دق منها وما جل، واختلط بعضها ببعض وأدخلت الأيادي إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها، ثم استحلفوا بعد ذلك كله وقرر بن جبير أن هذه لا محال من الأمور المغيب فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين الأيوبي، ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لازال ذلك كله ويكمل كلامه أنهم لم يلقوا ببلاد هذا الرجل ما يلم به من قبح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة،التي هي من نتاج عمال الدواوين[3].

---

[1] الشقيري محمد علم الدين ، صورة مصر عند رحالة بلاد العرب والأندلس من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، دار فرحة للنشر و التوزيع ، ط1 ، المنيا ، مصر ، 2005 م ص18.

[2] عبد الرحمن حميدة، مرجع سابق ص416.

[3] ابن جبير، مصدر سابق، ص13.

ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة زمن العبيديين فكان الحجاج يلاقون من الضغط في تسديدها عتبا مجحفا، ويسامون فيها فكانوا يلزمون أداء الضريبة المعلومة، ومن يعجز عن ذلك فكان يتناول بأليم العذاب بعيذاب وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الأذنين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة، ونعوذ بالله من سوء قدره فمنع السلطان صلاح الدين هذا الرسم اللعين، ودفع عوضا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعين مجبى موضع معين بأسره لذلك، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة،فعوضهم من ذلك أجمل عوض هو سهل السبيل للحجاج وكفى الله المؤمنين على يد هذا السلطان حدثا عظيما وخطبا أليما، فترتب الشكر له على كل من يزور بيت الله الحرام، وكذلك كان يؤدى المكس على شرب ماء النيل فضلا عما سواه فمحا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن، والدليل على عدل هذا السلطان وتأمينه للسبيل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفا فيما يعينهم، ولا يستشعرون إلا هيبة تشنيهم[1].

ويضيف ابن بطوطة انه كان سلطان مصر عند دخوله إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، يعرف بالألفي لأن الملك الصالح اشتراه بألفي دينار ذهبا، وأصله من قفجق والملك الناصر –رحمه الله– له السيرة الكريمة والفضائل العظيمة، وكفاه شرفا انتمائه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي يتعين على الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي، وبنا الزاوية العظيمة سرياقم 120 خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي كشف الفقراء والمساكين "خليفة الله في أرضه[2].

وقد أشار ابن بطوطة" إلى الفترة الثانية من حكم الناصر محمد أثناء عبوره على الكرك بقوله: وبهذا الحصن يتحصن الملوك وإليه يلجؤون في الجوانب. وله لجأ الملك الناصر لأنه ولي الملك وهو صغير السن فتولى على التدبير، مملوكه "السرار" النائب عنه، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج، فلما وصل "عقبة" إليه لجأ إلى الحصن وأقام به أعواما إلى أن قصده أمراء الشام واجتمعت عليه

[1] ابن جبير، مصدر سابق ص30.

[2] أسد الدين محمد،رحلة ابن بطوطة، الرباط، المغرب، مجلد (1)، 1997، ص210.

الملوك، وبالرجوع إلى المصادر نجد أن الفترة الثانية لتولي ناصر محمد السلطان في مصر، أطول من فترته الثانية والتي امتدت إلى عشرة سنوات {698هـ- 1298م} إلى {708هـ- 1308م}[1].

و يقول ابن رشيد وممن لقيه أيضا بالقاهرة المعزية الشيخ الفقيه لعمر الإمام العالم الزاهد الورع مفتي الإسلام بقية الإسلام بقية السلف الكرام صفي الدين ابو الصفاء خليل بن أبي بكر بن محمد بن صديق المراغي نائب قاضي الحنابلة بالديار المصرية ،كما ذكر الرحالة البلوي عند الحديث عن العالم عماد الدين أبي الحسين ابن أبي بكر بن أبي الحسن الكندي المالكي أنه ولي رتبة القضاء الأعلى ببلد الشعر الاسكندراني، كما ذكر الرحالة ابن بطوطة أن لكل مدينة من مدن مصر قاضيا و واليا، ففي مدينة الإسكندرية ذكر العالم فخر الدين بن الريفي وهو قاضي الإسكندرية الذي اشتهر بالفضل من أهل العلم، وذكر كذلك من قضائها وجيه الدين الصنهاجي المشهور بالفضل والعلم[2].

واتفقت وفاة قاضي المالكية آنذاك ناصر الدين بن الشمسي وكنت مقيما بالفيوم لضم زراعي هنالك فبعث عني وقلدني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة واحد وثمان مئة ،فجريت على السن المعروفة مني، من القيام بما يجب للوظيفة شرعا وعادة، وكان رحمه الله يرضى بما يسمع عني في ذلك ثم أدركته الوفاة في منتصف شوال بعدما أحضر الخليفة والقضاة والأمراء، وعهد على كبير أبناءه فرج ولإخوته من بعده واحدا واحدا، وأشهدهم على وصيته بما أراد وجعل القائم يأمر ابنه في سلطانه إلى أتابك أينما وفق رحمه الله عليه وترتيبه لأمور من بعده كما عهد لهم وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاصكيه السلطان يعرف بتنن، وسمع بالواقعات بعد السلطان فإن لم يكن هو الكافل ابن الظاهر بعده وتكون زمام الدولة بيده و طفش سماسرة الفتن يغرونه بذلك وبينما في ذلك إذ وقعت فتنة لأتابك، وكان بمصر فقيها من المالكية يعرف بنور الدين بن الخلال ينوب أكثر أوقاته عن قضاء القضاة المالكية فحرص بعض أصحابه على السعي في المنصب وبذل ما تيسر من موجوده لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك، فتم سعيه في ذلك، وليس منتصف محرم السنة الثالثة، ورجعت أنا للاشتغال بما كنت مشتغلا به من تدريس العلم وتأليفه، إلى أن كان السفر لمدافعة التمر عن الشام.[3]

---

[1] أماني بنت سعد الحربي، مصر من خلال كتابات الرحالة المغاربة،اطروحة ماجستير في التاريخ الاسلامي قسم الدراسات العليا التاريخية ،كلية الشريعة و الدراسات الاسلامية،جامعة ام القرى ، السعودية ، 2015-ص150.

[2] أماني بنت سعد الحربي، مرجع سابق، ص150.

[3] عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1، 2004، ص271-272- 274.

المبحث الثاني:الأوضاع الاقتصادية

يرتبط الجانب الاقتصادي في رحلة ابن جبير بالجانب الاجتماعي، ويظهر باستحياء في الحديث عن نشاط السكان والحالة المادية لهم في تلك الفترة[1].

فمثلا عند حديثه عن عيذاب يقول: هي من أحفل مدن الدنيا، السبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائد على مراكب الحجاج الصادرة والواردة فمنهم من يقوم بتأجير المراكب للحجاج، فيجمع لهم من ذلك المال الكثير، في حملهم إلى جدة ور دهم وقت انقضاءهم من أداء الفريضة وما من أهلها ذوي اليسار إلى من له الجلبة و الجلبتان، وهي تعود عليهم برزق واسع سبحان قاسم الأرزاق، على اختلاف أسباب لا الاه إلا سواه، كما يوجد في بحر عيذاب مغاصي على اللؤلؤ بجزر على مقربة منها وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيدة عليه الأحرف، وهو شهر يونيو الأعجمي والشهر الذي يليه ، ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية، ويذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزر في زوارق ويقيمون أيام بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حضه من الرزق، وأكثر ما يكون حديث ابن جبير عن الجانب الاقتصادي لأي مدينة يزورها الاكتفاء بالإشارة إلى أسواقها بالمجمل بدون تفاصيل، بمعنى أنه يشير إشارة موجزة مثلا مدينة كذا بها أسواق جميلة أو متسعة، وكان في البلاد المصرية وسواها مكوس وضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل، إلا أن السلطان صلاح الدين محاها كلها وبسط العدل وأمن السبل كما نجد أن بعض الرحالة المغاربة الذين قاموا هم أيضا بزيارة القاهرة وقاموا بوصف ما تحتويه من خيرات اقتصادية ونذكر منها [2].

الزراعة:

تعتبر الزراعة من المصادر المهمة في مصر كالصناعة والتجارة وقد ذكر الرحالة المغاربة ما تتمتع به القاهرة ومدن الصعيد في مصر من المحاصيل الزراعية، فيذكر لنا ابن سعيد المغربي كثرة زراعة الأزهار في القاهرة فيقول، وفي القاهرة أزهار كثيرة غير منقطعة الإتصال ، وتزرع بمصر الرياحين والأزهار على اختلاف أنواعها كالورد وهو في عدة أصناف كالأحمر والأبيض والأصفر الذي كان كثيرا ما يغرس بحدائق الإسكندرية وكذلك النرجس والبنفسج، ومن بين الأزهار التي انتشرت في مصر الليسفر بكثرة في الأماكن المنخفضة التي يقع فيها الماء ، كما تشتهر القاهرة بزراعة الكثير من الثمرات والفواكه كالرمان والموز والتفاح والقليل من

[1] الشقيري، مرجع سابق، ص24.

[2] نفسه ، ص25.

الإجاص والخوخ، ويعلل ابن سعيد قلة زراعة الإجاص والخوخ بارتفاع سعره وأما الإجاص فقليل غال وكذلك الخوخ ، وكذلك توجد بمصر زراعة النرجس والنسرين والليمون بأنواعه[1].

وكذلك توجد زراعة الأشجار مثلا:

شجرة السرو: وهي في مصر كثيرة كما توجد شجرة دلب الفستق وهي موجودة في حديقة نقيب الأشراف وشجرة الصنوبر وهي كذلك موجودة في حديقة نقيب الأشراف ولا وجود لسواها.

شجرة الجوز: شجرة في حقل نذير أغاني في قلعة الكثب ولا وجود لسواها ولكنها تكثر في مدينة الغيوم.

شجرة السجلة: قريبة الشبه من شجرة الجوز إلا أن أوراقها صغيرة[2].

شجرة السنبط: أوراقها كأوراق شجرة الكرز تصنع السفن من خشبها وتحرق وقودا ولا رماد لها وثمارها حمراء وإنها شجرة صلبة تستخدم أوراقها لعلاج الإسهال.

شجرة السياج: ليست شجرة كبيرة أوراقها كأوراق شجرة الكرز وهي دائمة الخضرة تكثر على ضفاف النيل وهو شجر يقبل مصر على زراعته.

شجرة الحناء: شجرة في حجم شجرة البرقوق وكان يقدمها البستانيون هدية للأعيان ولكن ليس لها ثمار إلا أن رائحتها تهب الروح وهي ليست الحناء التي تستعملها النساء.

شجرة الصفصاف: وهي كبيرة وأوراقها مفيدة لمرض اليرقان فتسحق أوراقها في هراوين خشبية لاستخلاص مائها، وإذا شرب مريض منها كأسا في ليلة مقمرة شفي من اليرقان في الصباح.

شجرة الحور: توجد في البستان هنا وهناك.

شجرة التوت: وثمارها أبيض وبنفسجي وأسود و طعمها حامض.

شجرة التمر الهندي: ينتشر هنا وهناك في الحدائق وهو يثمر.

شجرة السيبان: إنه نوع من الأشجار الصغيرة التي لا تعمر طويلا، يزرع حول حقول قصب السكر ولورقه رائحة إذا ما شمها الفأر وابن عرس لم يدخل حقل قصب السكر ليأكله[3].

ونجد ابن بطوطة يصف لنا ما تتمتع به المدينة من قوة ومن البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الأثيرة، وهذا ما يدل على مدى اهتمام مدن الصعيد بالزراعة وإن لم يصف ابن بطوطة أنواع ما تضمنته هذه البساتين

---

[1] أماني بنت سعد الحربي، مرجع سابق، 213.

[2] محمد حرب، الرحلة إلى مصر و الشام و الحبشة، تص:أوليا شلبي ، تر: حسين مجيب المصري و آخرون، مر: ماجدة مخلوف ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، د.ت ص55.

[3] محمد حرب ، مرجع سابق ص576.

من محاصيل زراعية كما اشهرت مصر بزراعة قصب السكر، لا سيما في مناطق ملوى وقفط ونجع حمادى، ويصف ابن بطوطة كثرة البساتين في مدينة البهنا بعد وصف كبير للمدينة ، ويصف لنا البلوى ما تتمتع به مدينة القاهرة من زراعة أزهار وأشجار بعد دخوله لها وقوله وفتحت لي رائحة القلب أبواب النزهة فانطلقت عنان طرف لطرف نحو جهة فرأيت فيها أزهار وأشجار باهرة، و وصف لنا الرحالة الثلاثة ابن سعد وابن بطوطة و البلوي ما تمتعت به مصر من محاصيل زراعية متنوعة في مدنها ككثرة زراعة الأزهار وزراعة الرمان والموز والتفاح والتمر والبطيخ بأنواعه ، وقلة زراعة الخوخ والإجاص والتين والعنب لارتفاع سعره، وكثرة زراعة البساتين في حين لم يشر الرحالة المغاربة الآخرون لما تحتويه مصر من محاصيل زراعية متنوعة[1].

التجارة:

ازدهرت التجارة في مصر في عصر الدولة الأيوبية، وبلغت أوج ازدهارها في دولة المماليك خاصة، وأصبحت محطة كثير من الناس ونورد قول الرحالة المغربي ابن سعيد الذي زار مصر في سلطنة صالح نجم الدين الأيوبي 639هـ/ 1241م، حيث كانت التجارة الخارجية مزدهرة، في تلك الفترة، ففي مدينة القاهرة كانت صناعة الأنطاء وهو نوع من أنواع السبط المصنوع من الجلد ، والتي تصدر من القاهرة إلى الشام أما التجارة في عصر المماليك فقد بلغت من الازدهار درجة كبيرة فلم تقتصر التجارة على مدن مصر الكبرى بل شملت مدن الصعيد حيث تمتعت بنشاط تجاري مزدهر ففي مدينة أشمون الرمان والتي ازدهرت فيها زراعة الرمان كما ذكرنا سابقا، كما تمتعت مدينة دمياط بالتجارة سواء داخلية أو خارجية فقد اشتهرت بزراعة فاكهة الموز كما ذكرنا سابقا ، والتي تحمل كتجارة إلى الفصفاط في المراكب وأما تجارتها الخارجية فنجد الحوت البحري الذي عرفت به دمياط يحمل منها إلى الشام وإلى بلاد الروم ، كما استوردت السودان من مصر النيل والمحلب والسكر الأبيض ، وكذلك استوردت دول إفريقية من مصر السكر الأبيض النقي الخالي من الشوائب، ويعتبر السكر من أهم المنتجات المستوردة من مصر في السودان لأنه يباع أضعاف ثمنه، ولم تقتصر التجارة الداخلية في مصر على ما وضعه الرحالة المغاربة، بل كانت مصر تصدر وتستورد من البضائع التجارية، فيذكر أن مصر على أيام المماليك كانت تصدر البضائع المستوردة من أوروبا كالعطور، و الذخور و الصموغ العطرية والتوابل كالفلفل والزنجبيل والسكر والموالح والقطن والكتان ، واستوردت مصر من الهند التوابل وجلود الحيوانات المدبوغة والأغطية المطرزة[2]، بخيوط الذهب والفضة والياقوت الأحمر والصندل الأبيض ،ومن الصين الحرير والخزف وبعض العقاقير والمنتجات المختلفة ،ومن

[1] أماني بنت سعد الحربي، مرجع سابق، ص15-16.

[2] أماني بنت سعد الحربي، مرجع سابق، ص217-218.

اليمن العقيق واللؤلؤ والفلفل والعنبر والخيول العربية، واستوردت مصر من أوروبا الأخشاب لصناعة الأثاث للمنازل والفن وكما ذكرنا لم تقتصر التعاملات التجارية في مصر سواء داخلية أو خارجية على سبيل المثال مدن الهند والصين واليمن فقط بل كان هناك تعاملا مع أوروبا ومع تجار النصارى كما بلغت تجارة بين مصر وأوروبا في عصر المماليك قمة الازدهار وامتازت مدن مصر بأنها محطات اقتصادية خصوصا القاهرة عاصمة مصر في ذلك الوقت، فقد استبقا هل بها البضائع والذخائر وأصحاب القوافل التجارية من كل جهة ومكان ،كما قصدها التجار، وذلك بسبب استقرار الخلافة العباسية في مصر في تلك الفترة[1].

الصناعة:

امتازت المدن المصرية بالصناعات المتنوعة ونذكر منها مدينة القاهرة والتي كانت تصنع بها النيدة، وهي حلوى مصنوعة من القمح وتصنع أيضا بغيرها من مدن مصر كما يصنع بمصر السكر، فقد وجد في قاهرة مطابخ السكر كما تصنع بالقاهرة الانطاء كما اشتهرت بصناعة الثياب والتي وصفها ابن بطوطة بأنها ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها ،وقد ازدهرت صناعة المنسوجات في مصر،حتى أصبحت من أهم الصناعات فضلا عن مدينة شنطا التي تنسب إليها الثياب الشطوية واشتهرت مدينة تنيس بصناعة القماش الرقيق سمي القصب، صنعت منه ملابس وعمائم الرجال وملابس للنساء ويذكر المقريزي بأن في مدينة سمهود سبعة عشر معصرة لعصر قصب السكر وعرفت مراكز صناعة السكر بالمعاصر والمطابخ والمسابك وانتشرت في مختلف مدن مصر وخصوصا في أماكن الزراعة كالفسطاط والمينا والغيوم وأسيوط وقفط ،ويذكر المقريزي أنه بعد سنة 700هـ/ 1301م، وجدت في قفط أربعون مسبكا للسكر وست معاصر للقصبة ويقول المقريزي عن بيع السكر في سوق الحلاويين وشاهدت بهذا السوق السكر ينادى عليه كل قنطار بمئة وسبعين درهما وكان يكثر استخدام المصريين للسكر[2].

كما يوجد صناعة المعدن حيث يوجد مناجم فضة في جبل جالوت عرب القاهرة وتوجد كذلك مناجم للذهب في شرق القاهرة في جبل المقطم المعروف بجبل الجوش[3].

وتوجد مناجم الزمرد في ولاية صعيد ويوجد معدن النترون في البحيرة ويوجد ملح بارود في كل قراها، كما يستخرج الملح من جميع بحيراتها[4].

---

[1] نفسه، ص219-220.

[2] نفسه ، ص221-224.

[3] محمد حرب، مرجع سابق، ص40.

[4] نفسه، ص40.

ومن الصناعات صناعة النحاس لصنع الثريات والأواني المنزلية والأباريق والصحون و راجت في مصر صناعة التكفيت ويقول المقريزي عن صناعتها وحول ما تنظم به الأواني النحاسية من الذهب والفضة، وكان لهذا الصنف من الأعمال رواج عظيم وللناس في النحاس الكفت رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شيئا لا يبلغ وصفه و وصف لكثرته فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفات ،ولا بد أن يكون في شورة العروس دكة نحاس مكفات، وازدهرت صناعة الزجاج ومن أهم مراكز صناعتها الفسطاط والغيوم والاشمونين والإسكندرية والتي تميزت بأشكال جميلة متقنة الصنع، وعلى الرغم من أن صناعة الحديد لم تكن من الصناعات المهمة في مصر في عصر المماليك لكنهم برعوا في صناعة الأسلحة والدروع والسيوف من الحديد.

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية والجانب الديني

1- الأوضاع الاجتماعية:

وأما فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي، فقد قدم لنا ابن جبير صورة واضحة عن بعض الجوانب الاجتماعية المهمة بالنسبة لمصر ومدنها وأهلها وعمرانها[1].

بحيث يذكر لنا الدكتور حسني محمود في كتابه –أدب الرحلة عند العرب- أن النجاح الأهم الذي حققه ابن جبير في رحلته هو في مجال الحياة الاجتماعية وهو ينظر دائما إلى أحوال الناس ومستشفياتهم ومدارسهم، وفي هذا المجال تتجلى قدرته على الملاحظة وملكته في النقد بحكم عمله و سنه[2].

مثلا في حديثه عن مناقب الإسكندرية يقول ابن جبير ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه،والمدارس و المحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد، ويفيدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يؤوي إليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، و إجراء يقوم به في جميع أحواله، واتسع إحسان السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانات لعلاج من مرض منهم ولهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم من علاج وغذاء وغير ذلك، ومن مآثر هذا السلطان أيضا انه عين للمغاربة خبزتين لكل شخص كل يوم بالغا ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسان أمين من قبله، فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبرة أو أزيد، بحسب القلة والكثرة وهكذا دائما[3]،

ويكمل لنا ابن جبير حديثه عن الأوضاع الاجتماعية لهذا البلد لقوله ومن الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم، وهو أكثر بلاد الله مساجد فالمكثر ينتهي تقديره إلى إثني عشر ألف مسجد[4].

وعلى الرغم من حب ابن جبير لهذا البلد وتقديره لسلطانه إلا أن هناك آفة تضجر منها كثيرا، ألا وهي سوء معاملة أهل عيذاب للحجيج فيقول: فيهم ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت وذلك أهم يشحنون بهم الجلاب فيجلس بعضهم على بعض، وتعود لهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، ويحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء، حتى يستوفي صاحب الجلبة ثمنها في طريق واحد، ولا يبالي بما يصنع بها البحر بعد ذلك ويقولون: "علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح" وهذا مثل متعارف عليه بينهم،

---

[1] الشقيري، مرجع سابق، ص20.

[2] حسني محمود، مرجع سابق، ص26.

[3] ابن جير، مصدر سابق، ص15.

[4] نفسه، ص17.

وأهلها الساكنون من قبل السودان يعرفون بالبجاة وهذه الفرقة من السودان أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولا لا دين لهم سوى حكمة التوحيد، التي ينطقون بها إظهارا للإسلام، ووراء ذلك مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضي الله عز وجل ورجالهم ونسائهم يتصرفون عراة، إلا خرقا يسترون بها عوراتهم وأكثرهم لا يسترون ويختم حديثه عنهم مقررا أنهم أمة لا أخلاق لهم ولا جناح على لاعنهم[1].

أهل القاهرة:

و يقول العبدري عن القاهرة انه حسبها شرا أنها جرين لحثالة العباد و وعاء لنهاية البلاد ومستقر لكل من يسعى في الأرض الفساد من أصناف أهل الشقاق والعناد والإلحاد و استولى الحسد على قلوبهم، واستوى الغش في جيوبهم، فنار الحسد مضطربة في الجوائح و سم الغش ممزوجة في عسل النصائح، وهي سوق ينصب بها الشيطان رايته ويجري إليها غايته، ويرى فيها لأتباعه وهم أهلها آية أطبقوا على سوء الأخلاق وتوافقوا على رفض الوفاق وقد رأيت فيهم من قلة الحياء وعدم التنزه عنه الخبائث والفحشاء ومن قلة التستر عند قضاء الحاجة ووالأكل ما تقتضيت منه العجب وأما بعضهم للغريب وتمالؤهم على ذلك، فأمر لا يحيط به علما إلا من غايته، وقد رأيتهم في طريق الحجاز إذا سمعوا مهاشرة شخص منهم للغريب يتجارون إليه من كل ناحية كما تضع الكلاب إذا رأت كلبا غريبا بينهم، وما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم وبإفريقية وأرض برقة والحجاز والشام فريقا من الناس أرذل أخلاقا وأكثر لؤما وحسدا، ومهانة نفوس وأضغن قلوبا وأوسخ أعراضا وأشد ذمامة وخيانة، وسرقة وقساوة وأصفى للغريب من أهل هذه المدينة لمؤسسة على غير التقوى وحق المدينة وضع أساسها عبد الزنادقة غلام بني عبيد –لعنهم الله– [2].

أن تجمع أخلاق العبيد وأحوال الزنادقة، ناهيك من قوم جعلوا الخانة شعارهم، والحسد المؤرث للضنا دثارهم فترى منهم شيوخا يتهارشون في الطرقات وأما العقوق بينهم فمتعارف، كان معنا في طريق الحجاز شخص منهم حج بأمه فكان إذا اغتاض عليها يقول لها لعنك الله ولعن الذي أواك يعني أباه، وذلك بعد ما حج بها، وسمعت شخصا منهم ينادي رفيقه في الركب فلما أتاه لعنه ولعن أباه، وقابله الآخر بمثل ذلك وتهارشا زمانا ثم قعد يأكلان[3].

أكل أهل القاهرة:

---

[1] عبد الرحمن حميدة، مرجع سابق، ص425.

[2] أبي عبد الرحمن محمد بن علي بن أحمد بن سعيد العبدري، رحلة العبدري،تح: علي إبراهيم كردي ، تق: شاكر الفحام ،دار سعد الدين، ط2، 2005، ص276-277-278.

[3] أبي عبد الرحمن محمد بن علي بن أحمد بن سعيد العبدري ،مصدر سابق ص279.

ويأكل أهل القاهرة الدميس والصير والمحتاة والبطارخ ولا يضع النيدة وهي حلاوة القمح إلا بها وبغيرها من الديار المصرية وفيها جواز طباخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين، لهن في الطبخ صناعة عجينة ومطابخ السكر[1].

ومن المأكولات أيضا:

الخيار: يزرع بكثرة ولكن ثمن الحاجة إلى استيراد بذوره من الشام كل عام لأن البذور التي نمت بمصر أثمرت عجوزا.

العجور: يشبه الخيار كذلك ولكن ثمرته عوجاء.

البطيخ: يزرع بكثرة في جميع المدن، إلا أنه صغير الحجم، ولكن بطيخ البرلس كبير وقشرته رقيقة وداخله نسيج أحمر ياقوتي ممتلئ بالماء.

البطيخ الأزرق: وهو كذلك أحد أنواع البطيخ إلا أنه فارغ من الداخل ويطرحونه في البرية في بلاد الترك غير أنه يباع بدينار ذهبي في بعض أحياء مصر.

العجور الأخضر: وهو يشبه عبد اللاوي، إلا أنه أخضر وأشكاله معوجة مثله كذلك ،وفيه بذور وطبيعته مرطبة وطعمه لا يشبه طعام آخر، يسمى في بلاد الترك "القرع المصري" ويسمى في مصر "القرع التركي".

جيب اللذيذ: ينمو على ضفاف النيل وهو يشبه الحمص ويميل لونه إلى الصفرة وهو بذوق لذيذ وطعمه مر[2].

قصب السكر: يزرع بكميات ضخمة في جميع القرى وهو محصول عظيم.

القلقاس: نبات أسود يشبه فجل بروسة يأكله الفقراء وطعمه لذيذ "مثل أبي فرومي".

القنابيط: يشبه الكرم لكن له أزهار صفر.

لوز النبي: شجر قصير كشجر السمر وفي كل شجرة لوزتان أو ثلاث لوزات.

الملوخية: عشب أخضر يشبع النعناع، يطحن كالسبانخ.

الثوم: نبات ضار لذا لا يقبل الناس عليه، ولكن يستخدم الثوم التركي ولا يوجد لشيء أرخص من البصل والملح.

[1] حسين نصار، النجوم الزهراء في حلى حضرة القاهرة، دار طباعة الكتب،1970، ص29.

[2] محمد حرب، مرجع سابق، ص60، 61.

النيلة: عشب لونه بين الخضرة والزرقة عندما يكتمل نموه يطحن في أواني كبيرة ثم يدق بالمطارق الخشبية فينضج ماؤه فيؤخذ ماؤه ويوضع على النار فيغلى وترسب زبدته في قاع الإناء ثم يحول إلى أقراص ويباع لبائعي الأصباغ.

القصب الريحاني: قصب طويل رقيق فيه عقد يضع من غليون التبغ.

الحلبة: مثل العدس توضع في صرر من البر وتنقع في الماء فتنمو.

وفي مصر القمح والشعير والفول والحمص والعدس والقطن والأرز والسمسم أكثر منه في البلاد الأخرى، وأرز مصر ألذ من أرز الهند وحبته أكبر ويقال أن أرز المنزلة وفراسكور لا نظير لمثله على وجه الأرض وليس فيه حصى ،وأجود أنواع الأرز في مصر هو الأرز السلطاني.[1]

أشربة مصر:

السوبيا: أي بوزة الأرز التي سبق وصفها فيما تقدم.

المازة: بوزة تصنع من القمح إلا أنه مشروب لعين مسكر للغاية.

البربريس: شراب يصنع من الزبيب الأسود يضاف إليه السكر والتوابل.

خمر البانجو: ينقع الحشيش مع العسل التركي ويتخمر ليلة ويصفى في الصباح بمنخل فيصبح خمرا اخضر اللون من شربها لم يميز رأسه من قدميه.

ماء الأسرار: خليط من الحشيش مع حلوى خليل الرحمن، ينقع في ماء الورد يومين فيصبح براقا ويخرج من غثاؤه ويباع في كؤوس في ميدان الروملي، ومن شرب منه كأسا أفشى ما في طويته من أسرار.

عصير العرقسوس: تستورد جذوره من بلاد الترك وتسحق في هراوين وتنقع في الماء ليلة ثم تصفى في مخلاة خيل جديدة فتقطر قطرات حمراء صافية تشرب،إلا إنه شراب غير مسكر.

عصير التمر الهندي: إنه كذلك مشروب لا وجود له إلا في مصر ولا وجود له في غيرها ، وهو غير مسكر إلا أنه منشط للكبد ومدر للصفراء وطعمه يميل للحموضة، والأشربة في مصر كثيرة [2].

2- الجانب الديني:

لقد عني ابن جبير عناية الخاصة بالجانب الديني في رحلته إلى المشرق، وذلك بوصف المساجد وقبور الصحابة، ومناسك الحج، ومجالس الوعظ، وكذلك وصف الكنائس والمعابد، وذكر الحروب التي كانت دائرة

[1] محمد حرب، مرجع سابق، ص61-62-63.

[2] نفسه، ص64.

بين المسلمين والصليبيين، وما كان عليه الأهالي مسلمين ومسيحيين من علاقات حسنة خلال تلك الحروب[1].

ولا شك أن هذه الأمور جميعا ترجع إلى نشأة ابن جير الدينية، وتعلمه القرآن الكريم منذ الصغر، وهذا ما أهله لأن يكون فقيها يوجه جل اهتماماته للمساجد وقبور الصحابة والأولياء الصالحين[2].

فمثلا عند وصفه لمدينة الإسكندرية فيقول: هي أكثر بلاد الله مساجد والمكثر منهم ينتهي في تقديرها إلى اثني عشر ألف مسجد، ومنهم من يقول ثماني آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له خمس دنانير مصرية في الشهر، ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه[3].

المساجد:

الجامع الأزهر: أول جامع أسس بالقاهرة أنشأه القائد الجوهر الصقلي مولى المعز سنة تسع وخمسين وثلاث مئة وكان به طلاسم فلا يسكنه الطير ثم جدده الحاكم وجعل عليه أوقافا، حيث قيل:هوية مصريا وغدا قاهري --- بصارم من لحظه يشهر أزهر وجها وغدا جامعا --- للحسن فهو الجامع الأزهر[4].

ومن مساجد القاهرة وجوامعها:

جامع الأندلس بالقرفة والجامع الحاكمي وجامع الأسوار وجامع ابن طولون ما بين القاهرة ومصر للمدينة وجامع السراجين والجامع العتيق ومسجد الأقمر.

ومنه مساجد مدينة مصر:

الجامع العتيق المشهور تاج الجوامع ومسجد البوشي ومسجد النخلة بالفسطاط والمسجد الجامع لعمرو بن العاص ومسجد ابن فحل بالغيوم ومسجد الطحان[5].

المدارس:

كانت القاهرة في القرن السابع هجري مدينة كبيرة ذات عمران وعلم وأدب وقد وصفها كثير من الرحالة الذين كانوا يأتونها من الشرق والغرب كناصر خسروا وابن جبير والعبدري والبلوي وابن سعيد وغيرهم كثير، وليس فيهم إلا من أشاد بضخامتها وكثرة أهلها واتساع علمها وكان فيها مدارس كثيرة وخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب صوفية تمثلت في مطارحه الأذكار وتواصل الصلوات، وقد عرفت هذه المدينة

[1] ابن جبير، مرجع سابق، ص5.

[2] الشقيري، مرجع سابق، ص28.

[3] شوقي ضيف، الرحلات،دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط4،د.ت ، ص74.

[4] محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي، رحلة الشتاء والصيف، ط1، 2012 م، ص27.

[5] أحمد حدادي، رحلة ابن رشيد السبتي، ج1،د.م.ن،د.ط، 2003، ص1.

المدارس منذ الدولة الفاطمية ومن تلك المدارس التي كانت توجد في مصر القاهرة المدرسة الناصرية والمدرسة القمحية والمدرسة السوقية والمدرسة الصالحية، ودار العلم والمدرسة الفاضلية والمدرسة القطبية ودار الحديث الكاملة والمدرسة الظاهرية، والمنصورة والطيبرسية ومدرسة السلطان حسن وغيرها.

وكان هؤلاء الرحالة يقصدون الإسكندرية لأنها كانت حافلة بالألوان المختلفة من الدين والأدب والعلم وصفوف المعرفة وفنون السمر ولهذا تعلموا فيها وعرفوا ما لم يكونوا يعرفون من قبل من العلوم والفنون[1].

المبحث الرابع: الجانب العمراني:

يمثل الوصف في أدب الرحلة عاملا رئيسيا نستطيع من خلاله التعرف على عاملين مهمين يكونان نسيج النص الرحلي: الأول: هو ما يملكه الرحالة من مكونات نفسية وفنية وثقافية والثاني: هو ما يسعى إليه النص الرحلي من تقديم الآخر داخل منظومة مجتمعه، من خلال ما يتضمن به هذا المجتمع من جوانب حياتية مختلفة، ولقد كان الوصف أهم سمة مميزة لرحلة ابن جبير، وقد تميز وصفه بالدقة والشمول في كل ما وقعت عليه عينه أو سجله في رحلته، دقة في التوقيت وفي تحديد المسافات والمساحات، ولم يقتصر على وضع الجانب الخارجي فقط، وإنما عندما تحدث عن موضع أو مدينة يتعمق داخلها ويصف معالمها وآثارها ويتحدث عن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ، ولكي يتضح لنا صورة مصر من خلال رحلة ابن جبير، يجب أن نأخذ نماذج عن وصفه لبعض المدن المصرية التي مر بها على سبيل الإسكندرية التي تعد من أهم المدن التي أطال بها ابن جبير ونترك ابن جبير يصف لنا المدينة بلسانه فيقول: أول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى أن ما شاهدنا بلادا أوسع مسالك منه ولا أعلى ولا أعتق ، و أسواقه في نهاية من الاحتفال أيضا، ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها، و اعتق و امتن وعاينا فيها أيضا من سواري الرخام، والراحة الكثيرة وعلوا واتساعا وحسنا لا يتخيل بالوهم[2].

قلعة صلاح الدين:

وقد بنا السلطان صلاح الدين قلعة الجبل لتكون له معقلا وحصنا يعتصم به من أعدائه،فإنه كان يحذر من الفاطميين، فاختار لها المحل الذي بنيت فيه وأقام على إمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، فشرع في بناءها وبنى سور القاهرة سنة 572هـ /1176م وتعتبر القلعة أعظم منشآت صلاح الدين الحربية والتي استغرق بناءها زمنا طويلا، وقد قام بهدم ما حولها من المساجد وأزال القبور وهدم الأهرام الصغار التي كنت بالجيزة اتجاه مصر، وكانت كثيرة العدد، ونقل حجارتها وبنا بها السور والقلعة وقناطر الجيزة.

[1] احمد حدادي، مرجع سابق ص34-35.

[2] ابن جبير، مصدر سابق، ص14.

وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى قلعة صلاح الدين قبل الرحالتين ابن سعيد والتجيبي وذلك عند زيارته لمصر سنة 578هـ/ 1182م وكانت في بداية بناءها وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المتعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة، والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة، كنشر الرخام، ونحت الصخور العظام وحفر الخنادق المحدق بمصر المذكور، وقد وصف لنا الرحالة التجيبي الإصلاحات المعمارية على قلعة صلاح الدين في عهد السلطان المنصور قلاوون مما يدل على أهميتها ، و إنها ليست كحصن ضد الأعداء فقط وإنما كمقر للسلطنة[1].

منار الإسكندرية:

قدم لنا الرحالة وصفا لما كان عليه منار الإسكندرية فالأول هو الرحالة ابن جبير ويقول عنه انه من أعظم ما شاهده من عجائب الإسكندرية المنار، الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي سخر لذلك آية للمؤمنين وهدية للمسافرين و لولاه ما اهتدوا في البر والبحر ، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا، و هو في غاية العناية والوثاقة، طولا وعرضا، يزاحم البحر سموا وارتفاعا ويقصر عنه الوصف و يضيق، والمشاهدة له تتسع ويذكر أن طوله أزيد من مئة وخمسين قامة، وأما داخله فهو مرأى هائل واتساع معارج ومداخل كثيرة ومساكن، وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة، يتبرك الناس بالصلاة فيه.[2]

أما الرحالة الثاني هو العبدري الذي وصف لنا الشكل الخارجي للمنارة وما تحتوي عليه المنارة من الداخل.

أما الرحالة الثالث ابن رشيد فقد ذكر ارتفاع المنارة وكم يبلغ مقاسها بقوله عنها : ومن عجائب الإسكندرية منارها الذي يعجز عنه الواصف ويحار فيه الراصف.

أما الرحالة الرابع الذي وصف منار الإسكندرية فهو ابن بطوطة الذي زار مصر على أيام السلطان الناصر محمد سنة 726هـ/ 1325م، وقد هدم أحد جوانب المنارة قال عنها: "قصدت المنارة في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدم و وصفه على أنه بناء مربع ذاهب في الهواء، وبابه مرتفع عن الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وضعت بينهم ألواح خشب، يعبر عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل، وداخل الباب موضع الجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة، وعرض المربع بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعة شبرا، وهو على تل مرتفع، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل

[1] أماني بنت سعيد الحربي، مرجع سابق، ص351، 352.

[2] شوقي ضيف، مرجع سابق، ص73.

البحر بسور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة، وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية وقد قدم الرحالة ابن بطوطة أيضا وصف للتطورات المعمارية على المنار، فقد وصف لما كانت عليه المنارة في عهد الناصر محمد سنة 727هـ، وقد تهدم أحد جوانبها، ثم قدم وصف آخر أثناء عودته إلى المغرب ومروره بمصر سنة 750هـ/ 1349م في عهد السلطان ناصر حسن وقد أصبحت خرابا[1].

الحمامات:

عرف المصريون سواء في عصر الأيوبيين أو المماليك الحمامات التي انتشرت في مدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى، ولم تكن من عادة المصريين بناء الحمامات عند بناء منازلهم، باستثناء أبناء الطبقة الحاكمة ومن يتبعهم من كبار المعممين وكبار التجار، وكان المصريون لهم الحمامات العامة التي لم تساهم الدولة في بناءها، إنما بنيت على يد الأفراد الأثرياء، الذين يبنونها للاستثمار والتوريث وبعضها بني لتخصيص إيرادها كوقف على مدرسة أو سبيل ويستخدم الناس هذه الحمامات لقاء أجر معين يدفع للقائم على الحمام، وكانت الحمامات على درجة عالية من الجودة حيث ذكر الرحالة عبد اللطيف البغدادي الحمامات في مصر بقوله: "أما حماماتهم فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وضعا، ولا أتم حكمة، ولا أحسن منظرا ومخبرا".

ولم يقتصر تخصص الحمامات للرجال والنساء من المصريين أو الطوائف الصوفية بل شمل الغرباء الوافدين على الإسكندرية والقاهرة وغيرها من المدن المصرية فيذكر الرحالة ابن جبير بأن من اعتناء السلطان صلاح الدين بالغرباء: "فأمر بتعيين حمامات يستحمون فيها من احتاجوا لذلك".

وكانت الحمامات إحدى أهم الوسائل لعلاج بعض الأمراض وبصفة خاصة الروماتيزم وآلام المفاصل، وفي العصر المملوكي اعتبر الحمام فضلا على أنه مكان لإعلان الشفاء"[2].

نهر النيل:

وصف لنا عدد من الرحالة أهمية نهر النيل للمصريين، فالرحالة العبدري الذي أتى إلى مصر في زمن السلطان المنصور قلاوون فقد وصف لنا مدى اتساع نهر النيل وعظمة فائدته في حياة المصريين.

و من الرحالة الذين وصفوا لنا نهر النيل "ابن بطوطة" الذي يتفق كثيرا في وصفه مع ما ذكر الرحالة العبدري، فقد وصف ابن بطوطة مدى اتساع نهر النيل وذكر حديث حادثة إسراء الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، ورؤيته لأنصار الجنة الأربعة الظاهران: النيل والفرات والباطنان ثم ذكر متى تبدأ زيادة نهر النيل ومتى ينقص وأثر ذلك على المجتمع المصري.

---

[1] أماني بنت سعد الحربي، مرجع سابق، ص347، 350.

[2] نفسه، ص326، 327.

وقد وصف لنا الرحالة البلوي نهر النيل ومدى اتساعه وأهميته على حياة المصريين في حالة نقصانه أو زيادته في حدوث الوباء والغلاء، كما وصف البلوي عدد المراكب في نهر النيل وهذا يدل على ازدهار النشاط التجاري في عصر المماليك.

الأهرامات:

اتفق الرحالة ابن بطوطة مع العبدري تماما في وصف الأهرامات من ناحية ذكر سبب بناءها، وشكلها وقصة المأمون عندما أراد هدمها، وفي ذلك يقول ابن بطوطة وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأولوية بناءها، وجاء وصف الرحالة البلوي للأهرامات أكثر دقة فقد اكتفى بوصف شكل الأهرامات فقال: "وبها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة المنشأ، كأنها القباب المضروبة قامت في جو السماء، ولا سيما الاثنان منها يقصد الجو بهما سموا واتساعا، ارتفاعها مائة ذراع بالذراع الكبيرة[1].

الفنادق:

وتعتبر الفنادق والخانات من أهم المنشآت التجارية التي كانت تستخدم لإيواء الأجانب في القاهرة وهي تشبه الأسواق الكبيرة، توضع البضائع في أسفلها ويتحول أعلاها في الليل إلى مكان نوم ونتيجة ارتباط دولة المماليك بعلاقات تجارية مع كثير من الدول العربية والهند والصين ولأن مصر كانت ملتقى للطرق التجارية تعتبر الوسيط التجاري بين تجارة الهند وتجارة أوروبا وجدت جاليات أجنبية كبيرة العدد وأعداد متفاوتة مثل "الأرمن" و"الأحباش" و"اليونانيين و"المسيحيين" الوافدين من جورجيا، وغيرهم خاصة في مدينتي الإسكندرية والقاهرة لذلك اهتمت دولة المماليك بهم فقامت ببناء الفنادق والخانات ليقيموا فيها فترة تواجدهم بمصر ومن الفنادق التي بنيت في العصر المملوكي، نذكر: فندق "طرنطاي" وهذا الفندق يفد إليه تجار الزيت الوافدين من الشام، وقد بقي هذا الفندق حتى سنة 721هـ/ 1321م حيث احترق في الحريق الذي هب في القاهرة.

وبالرجوع إلى المقريزي فقد ذكر الفنادق وأطلق مصطلح الفندق على الخان فعند حديثه عن خان مسرور قال: "وقد أدركت فندق مسرور الكبير في غاية العمارة تنزله أعين التجار الشاميين بتجارتهم".

فمصطلح الخان والذي ذكره الرحالة المغاربة تعني الفندق والتي هي مكان يقصده التجار للنوم و وضع بضائعهم[2].

---

[1] اماني بنت سعد الحربي، مرجع سابق، ص336، 340.

[2] نفسه ، ص323، 325.

الفصل الثالث:

الأوضاع السياسية و الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام من خلال رحلة ابن جبير.

وينقسم إلى أربع مباحث:

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في بلاد الشام أثناء رحلة ابن جبير.

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

المبحث الثالث: الجوانب العمرانية والثقافية.

المبحث الرابع: أوضاع المغاربة في بلاد الشام.

تطرقنا في هذا الفصل إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية من خلال رحلة ابن جبير، وتناولنا أيضا العمران والجانب الثقافي لبلاد الشام في ذلك العصر، كما قدمنا إشارات عن رحالة وجغرافيين مغاربة آخرين أمثال:الرحالة الشهير ابن بطوطة، وابن سعيد المغربي، و الشريف الإدريسي، و تناولنا أيضا العمران والجناب الثقافي لبلاد الشام في ذلك العصر، مع الاستعانة بكتب التاريخ العام لتوضيح الحدث التاريخي أكثر.

المبحث الأول : الأوضاع السياسية و الحربية

شهدت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية العديد من الاضطرابات داخليا وخارجيا، خاصة بعد سقوط الخلافة الفاطمية سنة 567 هـ / 1171 م، حيث أن صلاح الدين بدا بتوسيع دائرة نشاطه ، و ذلك بحكم توليه منصب الوزير على مصر، ومن ذلك انه خرج إلى الرملة وعسقلان وغزة للقيام بهجمات محدودة حتى يشعر الصليبيين بقوته، ولا شك في أن هذا النشاط المتعدد الأوجه و ما صحبه من ازدياد أهمية صلاح الدين على مسرح الأحداث أثار مخاوف سيده نور الدين محمود ، الذي قام بدوره بتوجيه أوامره لصلاح الدين من اجل محاصرة حصن الشوبك – جنوبي البحر الميت – ثم الاجتماع معه هناك ، لمهاجمة حصن الكرك الشهير [1]

فنازل صلاح الدين حصن الشوبك و حاصره و ضيق على من مر به من الإفرنج ، وأدام القتال حتى استسلم الإفرنج، وطلبوا الأمان و استمهلوه عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك ، لما سمع نور الدين، بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصدا بلاد الإفرنج أيضا ليدخل إليه من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين انه إذا جاء نور الدين وأنت هنا، فلا بد لك من الاجتماع به و حينئذ يكون هو المحتكم فيك ، إن شاء تركك أو لا فقد لا تقدر على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر، فرحل صلاح الدين عن الشوبك عائدا إلى مصر، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية، لأمور بلغته عن بعض شيعته العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها، وانه يخاف عليها من البعد عنها، وأطال الاعتذار، إلا أن نور الدين لم يقبل اعتذاره، و تغير عليه و عزم على قصد مصر و إبعاده عنها، فسمع صلاح الدين بذلك و جمع أهله بما فيهم أبوه نجم الدين بن أيوب، و هذا الأخير قال لابنه ناصحا له قائلا: الرأي الصواب هو أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه، بلغني انك تريد الحركة لأجل البلاد فبأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجابا يضع في رقبتي منديلا و يأخذني إليك ففعل صلاح الدين ما نصحه به والده، فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره فكان الأمر كما ظنه أيوب

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون و المماليك في مصر و الشام ، دار النهضة العربية للطبع و النشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر ،1996 م ص 30

فتوفي الملك نور الدين ولم يقصده، و ملك بعده صلاح الدين البلاد، ويقول ابن الأثير إن هذا كان من أحسن الآراء و أجودها بخصوص هذه الحادثة التي وقت بين الملكين العادلين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي[1].

كما تجدر الإشارة أن الرحالة ابن جبير كان من اشد المعجبين بالسلطان صلاح الدين الأيوبي وعن حسن سيرته يقول: و ما له من المآثر المأثورة في الدنيا و الدين و مثابرته على جهاد أعداء الله، لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام و الشام أكثره في يد الإفرنج، فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات فهو لا يأوي لراحة ولا يخلد إلى دعة ، و لا يزال سرجه مجلسه[2].

وأضاف ابن جبير انه أثناء تواجده بالمنطقة كان قد خرج السلطان صلاح الدين لمنازلة حصن الكرك الشهير وكان قد قصد إليه الإفرنج جميعهم ، و قد تالبو من كل أوب و رامو أن يسبقوه إلى موضع الماء ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين ، فصمد لهم و اقلع عن الحصن بجملته و سبقهم إلى موضع الماء، فحادو عن طريقه و سلكوا طريقا وعرا ذهب فيه أكثر دوابهم، وتوجه والى حصن الكرك المذكور، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ولم يبق لهم إلا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء و يبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه، فانتهز صلاح الدين الفرصة و داهم مدينة " نابلس " و هاجمها بعسكره فاستولى عليها و سبى كل من فيها و اخذ إليها حصونا و ضياعا ، و امتلأت أيدي المسلمين سببا لا يحصى عدده من الإفرنج و من فرقة من اليهود تعرف بالسمرة نسبة إلى السامري ، و انبسط فيهم القتل الذريع، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، من الأمتعة و الذخائر و الأسباب و الأثاث ، إلى النعم و الكراع إلى غير ذلك ، وكان من فعل هذا السلطان الموفق أن أطلق أيدي المسلمين على كل ما احتازته و سلم لهم ذلك و أبو غانمين فائزين بالسلامة و الغنيمة، و خلصوا من أسرى المسلمين عددا كثيرا، و كانت غزوة لم يسمع مثلها في البلاد على حسب كلام ابن جبير[3].

كما أشار ابن جبير إلى الجانب الحربي و ما اتصل بالقلاع و الحصون ، التي مثلت المظهر البارز للعمارة الحربية في ذلك العصر، و ذلك في ما يخص الصليبيين و كذلك المسلمين.

أولا : فيما يتعلق بالقلاع الصليبية تجدر الإشارة أن ابن جبير ذكر القليل منها، واخص بالذكر حصن الأكراد الذي كان الصليبيون يغيرون منه على المدن الإسلامية المجاورة مثل حماة و حمص، و الذي كان على

[1] ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلمية ، ط 4 ، مجلد 10 ، بيروت ، لبنان ، 2003 م ص 35-36

[2] ابن جبير ، مصدر سابق ص 270

[3] نفسه،ص 272

مسافة قريبة منها، حيث أن ذلك الرحالة أشار إلى انه " بمرأى العين منهما "، و كذلك تعرض لقلعة صليبية أخرى تعرف بقلعة تبنين، و وصفها أنها حصن كبير من حصون الصليبيين ، كما تعرض لحصن الكرك الواقع على طريق الحجاز ، الذي اشرنا سابقا أن السلطان صلاح الدين خرج لمنازلته [1].

ثانيا : أما فيما يتعلق بالقلاع و الحصون الإسلامية ، تعرض ابن جبير إلى قلعة دمشق ،و قد أوضح أن السلطان يسكنها و حدد موقعها بأنها في مواجهة باب الفرج، و هو باب من أبواب المدينة، أما قلعة حلب فقد امتدحها من حيث ارتفاعها الشاهق، وكذلك مناعتها، وأشار إلى أن سورها الأعلى كله أبراج منتظمة ، كما يوجد بداخلها المساكن السلطانية ، المنازل الملوكية.

كذلك نجد ابن جبير قد أشار إلى قلعة حماه، ووصفها بأنها على ربوة كبيرة مستديرة ، و تناول أمر حصانتها و مناعتها، و توافر المياه بها، من اجل سقاية الجنود، أما حمص فتناول قلعتها و وصفها بالمناعة، وفي بزاغة ذكر قلعتها الكبيرة المنيعة دون أن يقدم تفاصيل أخرى عنها.

وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين شيدوا عددا من القلاع والحصون في بلاد الشام، في عصر الحروب الصليبية إلا أنها كانت اقل في العدد إذا ما قورنت بالقلاع الصليبية[2].

2- المبحث الثاني : الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية

أ- الأوضاع الاقتصادية :

تكشف رحلة ابن جبير إلى بلاد الشام عن وجود ما يمكن وصفه "برؤية اقتصادية " لذلك الرحالة الأندلسي وفي هذا المجال أشار إشارات هامة لم تأتي بصورة عرضية، وإنما جاءت مقصودة وثرية ومفصلة، و ذكر العديد من مظاهر النشاط الاقتصادي في عدد من المدن الشامية، خاصة تلك الواقعة تحت السيادة الإسلامية، و على سبيل المثال ذكر بعض الصناعات في مدينة دمشق، منها صناعة الثياب، وكذلك الصناعات النحاسية، و ذكر موقعها بطول جدار الجامع الأمور القبلي، بيد آن إشارته للنشاط التجاري تعد أثرى ، و من ذلك انه تناول الأسواق في العديد من المدن التي زارها [3].

على سبيل المثال تعرضه لأسواق دمشق فيقول عنها : أسواق هذه البلدة من احفل أسواق البلاد ، و أحسنها انتظاما، وأبدعها القصور، وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقها الجديدة، ولها أيضا سوق يعرف

---

[1] محمد مؤنس عوض ،الجغرافيون و الرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، ط 1، عين للدراسات و البحوث د.م.ن ، 1995م ص 307

[2] نفسه، ص 308

[3] نفسه،ص 290

بالسوق الكبير، يتصل من باب الجارية إلى باب شرقي وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى، وفي قلبه حجر يقال أن إبراهيم – صلى الله عليه و سلم –كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع[1].

أما مدينة حلب فقرر أن: أسواقها واسعة وكبيرة منتظمة ومستطيلة، وهي مسقوفة بالخشب بها جميع الصناعات المدنية، أما حماة: أشار أن أسواق المدينة العليا فيها أفضل و أجمل من المدينة السفلى، وهي تشمل كافة الصناعات وأنواع السلع التجارية، وتمتاز بأنها منتظمة و مرتبة و مقسمة وعند بزاغة: نجده يقرر أنها ذات سوق تجتمع فيه المرافعة الشعرية،وكذلك كل أنواع التجارة الموجودة في المناطق الحضارية[2].

أما فيما يخص رؤيته الاقتصادية لتلك الأسواق التجارية، نجده يفرق بين المزدهر منها و الكاسد، فإذا كان قد مدح في جمال وانتظام أسواق المدن السابقة ووصفها بصفة عامة على أنها مزدهرة، إلا انه أشار إلى أن أسواق مدينة حمص: تعاني من الكساد، وذكر أنها بلا رونق، ويورد التفسير الحقيقي لذلك الأمر أن وجود احد المعاقل الصليبية الكبرى و نعني به "حصن الأكراد" على بعد عشرة أميال من المدينة، و هجوم العناصر الصليبية المتواجدة فيه على تلك المدينة، كل ذلك جعل منها مدينة حدودية ثغرية تعاني الكساد التجاري[3].

و في هذا المجال انفرد ابن جبير بإشارة هامة للغاية تعكس طبيعة ذلك العصر ، الذي شهد ما يمكن وصفه بالثورة التجارية، إذ أن الصليبية أدت إلى إثراء الصلات التجارية بين الشرق والغرب، بصورة لم تكن موجودة بمثل ذلك الشكل من قبل، وكنتيجة طبيعية لذلك الوضع أخذت المصادر تشير إلى ضخامة حجم التعامل النقدي في مثل تلك العملات التجارية وظهرت بصورة واضحة رؤوس الأموال الضخمة وبالأخص في التعامل التجاري الدولي و هكذا وجدنا ذلك الرحالة الأندلسي يشير إلى ظاهرة الاحتكار التجاري ، و تركزه في عدد قليل للغاية من التجار الرأسماليين الكبار، و من أمثلة على ذلك إشارته لأمر تاجرين كبار هما : " نصر بن قوام " و" أبي الدر ياقوت مولى العطافي " وهما عنده على درجة كبيرة من الثراء، والدليل على ظاهرة الاحتكار قوله: تجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي و لا ذكر فيه لسواهما،كما أن القوافل التجارية صادرة و واردة محملة بالبضائع لحسابهما[4].

كما أشار الرحالة ابن جبير إلى ظاهرة تعجب منها كثيرا ألا و هي اتفاق النصارى و المسلمين أثناء الحرب و يقول في هذا الصدد: و من أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين و نصارى، و

[1] ابن جبير ، مصدر سابق ص 261

[2] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 290

[3] نفسه، ص 291

[4] نفسه، ص 292

ربما يلتقي الجمعان و يقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى اختلفا بينهم دون اعتراض عليهم، و شاهدنا في ذلك الوقت خروج السلطان صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك وهو من أعظم حصون النصارى، فنازله وضيق عليه وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، وتجار النصارى أيضا لا يمنع احد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الآمنة على غاية ، وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق والاعتدال بينهم في جميع الأحوال، وأهل الحرب منشغلون في حربهم و الناس في عافية و الدنيا لمن غلب[1].

وهذا دليل على أن العداء بين المسلمين والصليبيين اتخذ شكلا حربيا وسياسيا ولم يتخذ البعد الاقتصادي، ولم يستطع احد من الطرفين أن يقاطع الآخر تجاريا، لان ذلك كان يعني الانتحار الذاتي له قبل أن يقضي على الآخر[2].

وأشار ابن جبير إلى وجود حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين في مدينة بانياس، وهو موضع تمكيس القوافل وذكر أن صاحبته تدعى بالملكة واصفا إياها بالخنزيرة ، وهي أم الملك الخنزير صاحب عكة المحتلة، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس الواحد، ولا اعتراض على التجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون وهو محل التعشير.

وأضاف أن أكثر المعترضين في هذا المكس هم المغاربة، و لا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، و ذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين – رحمه الله – احد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر و اشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم، و قال الإفرنج في هذا الصدد: " أن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا، فلما تعرضوا لحربنا و تالبو مع إخوانهم المسلمين عاينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم " فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم و يخفف عنتهم عنهم[3].

كما تعرض ابن سعيد المغربي إلى النشاط الاقتصادي في بلاد الشام من خلال زاويتين،الأولى هي الزراعة و الثانية التجارة، أما الزراعة فنجد انه يقرر اشتهار حارم بإنتاج نوع جديد من الرمان يمتاز بكثرة المياه، أما

[1] ابن جبير، مصدر سابق ص 260

[2] محمد مؤنس عوض ، مرجع سابق ص 294

[3] ابن جبير ، مصدر سابق ص274

معرة النعمان فنجد انه يقرر اشتهارها بزراعة الزيتون و التين والفستق، أما حلب نجده يقرر أنها تنتج القطن و كذلك الفستق الكبير، ومن الواضح أهمية إشارته بشان القطن، على اعتبار انه يدخل في صناعة المنسوجات.

أما التجارة فنجد انه يشير إلى أن القطن الذي ينتج في حلب، يدخل في نطاق تجارة البحر المتوسط فيصل إلى سبتة بالمغرب الأقصى، و يبدو أن حلب اعتمدت على ميناء السويدية أو غيره من الموانئ على الساحل الشرقي للبحر المتوسط من اجل تصريف منتجاتها.

ومن جهة أخرى عندما يذكر مدينة الباب الواقعة في باب بطنان شمال شرق حلب، نجده يذكر دورها في حركة التجارة و يقرر أن بها نشاط تجاري للبزازين أي تجار الأقمشة وكذلك العطارين، وتجدر الإشارة أن أنواع العطارة قد تزايدت في بلاد الشام بشكل واضح في ذلك العصر[1].

كما احتوى تناول الإدريسي لبلاد الشام من خلال كتابه نزهة المشتاق جوانب اقتصادية هامة وفي هذا المجال نجده يذكر أمر الثروة المعدنية، وكذلك النشاطين الصناعي والتجاري في العديد من المدن الشامية، على نحو يعكس أن ذلك الجغرافي كان لديه رؤية اقتصادية هامة،و من الأمور الجديرة بالملاحظة أن الإدريسي حرص على إيراد تميز بيروت بالثروة المعدنية لا سيما الحديد، إذ أشار إلى انه يوجد بالقرب منها جبل فيه معدن الحديد الجيد ، يقطع و تم استخراجه بكميات كبيرة الأمر الذي انعكس بالضرورة على الصناعات التي يدخل فيها ذلك المعدن.

أما الزاوية الصناعية فنجده قد أوضحها بالنسبة لدمشق حاضرة الشام الكبرى و قد أشار إلى أن دمشق تحتوي على ضروب من الصناعات، وأنواع من الملابس مثل الخز والديباج النفيس الذي أعجب بصناعته حتى وصفه بأنه عجيب الصنعة وانه عديم المثال، و انهي تعليقه عن الثياب الدمشقية بأنها لا تنافسها ثياب.

و واقع الأمر أن مقولة الإدريسي السابقة تعكس بجلاء مدى التفوق الذي حققته صناعة الثياب الدمشقية في عهد السلطان الملك العادل نور الدين محمود، الذي ازدهر الإنتاج الصناعي بصفة عامة في عهده و شهادة الإدريسي شهادة رجل قادم من سبتة بالمغرب الأقصى، و طاف العديد من بقاع العالم المعمور في ذلك العصر[2].

و كامتداد لرؤيته الاقتصادية نجد أن الإدريسي قدم لنا رؤيته التجارية، و قد حرص على تقديم صورة للأسواق التجارية، و كذلك أنواع السلع المتعددة، و من ذلك انه قرر بشان مدينة صيدا أنها زاخرة بالأسواق ولاحظ

[1] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 187

[2] نفسه، ص 26

أن أسعار السلع رفيها رخيصة، كما وصف مدينة دمشق بان تجارتها رابحة، و عكست عبارته مدى الثراء الكبير الذي حققته تلك المدينة، من عوائد النشاط التجاري، و قد ذكر أن ديباجها يحمل منها ليصدر إلى كافة الأرجاء بعيدة وقريبة ومن المعروف أن الصناعة الدمشقية المتقدمة في ذلك العصر أمدت التجارة الدمشقية بزاد هام للتصدير، وقد دخل الديباج الدمشقي كسلعة هامة في التجارة الدولية، في العصور الوسطى.

أما عرقة فهي عنده كثيرة التجارات، و طرابلس وصفها بأنها مقصود عليها بالأمتعة و ضروب الغلات، و صنوف التجارات مما عكس انتعاشها الاقتصادي[1].

ب- الأوضاع الاجتماعية:

يعتبر القسم الخاص باقيلم الشام من أثرى الأقاليم التي وردت في رحلة ابن جبير، بحيث يكاد المطلع على هذا الكتاب يعتقد انه لم يترك شيئا لم يتناوله أو يشير إليه، فقد تناول في رحلته الحياة الاجتماعية ببلاد الشام سواء في المناطق الإسلامية أو في المناطق الخاضعة للصليبيين، و أول ما تناوله ابن جبير في هذا المجال هو الخارطة المذهبية و العقائدية في حياة الشاميين و من ذلك انه تطرق إلى المتصوفة، و كذلك تعرض للفرق الشيعية المختلفة، و من ناحية أخرى تناول النبوية المسلطة على الشيعة في نظر ابن جبير.

أولا: فيما يتعلق بالمتصوفة أشار ابن جبير إلى مكانتهم العالية، و أنهم الملوك في هذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله عز و جل مؤن الدنيا و أفضالها، و فرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش، و أسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان، و هم في نظره على طريقة شريفة و سنة في المعاشرة عجيبة، و بالجملة قرر أن أحوالهم كلها بديعة، و هم يرجون عيشا طيبا هنيئا [2].

ثانيا: أما فيما يتعلق بالشيعة أشار أنهم أكثر من السنيين في هذه البلاد، و أن لهم من الأمور العجيبة، و قد عمرو البلاد بمذاهبهم، و هم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون، منهم والامامية والزيدية، و هم يقولون بالتفضيل خاصة، و منهم الإسماعيلية و النيصرية وهم كفرة فإنهم يزعمون الالاهية لعلي كرم الله وجهه، تعالى الله عن قولهم، و منهم الغرابية و هم يقولون أن عليا رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه و سلم، من الغراب بالغراب، وينسبون إلى الروح الأمين عليه السلام قولا تعالى عنه علوا كبيرا... إلى فرق كثيرة يضيق

[1] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 27

[2] ابن جبير، مصدر سابق ص 256

عنهم الإحصاء، قد أضلهم الله و أضل بهم الكثير من خلقه ، خاتما حديثه عنهم بالدعاء لله عز و جل بقوله :" نسال الله عز وجل العصمة في الدين، و نعوذ به من زيغ الملحدين " [1].

ثالثا: كما تناول ابن جبير أمر النبوية و دورها في مواجهة العناصر الشيعية في بلاد الشام، ويلاحظ أن هناك من الباحثين من اعتقد أنها إحدى الفرق الصوفية، غير أن هذا القول مردود على أن صاحب ذلك الرأي قد خلط بين النبوية و البيبانية وهي الطريقة الصوفية الشامية، التي تنسب إلى نبا بن بيان الزاهد [2].

وأشار ابن جبير في كتابه الرحلة أن الله عز و جل سلط هذه الطائفة (النبوية) على الرافضة الشيعية، و عرفهم أنهم سنيون يدينون بالفتوة، و بأمور الرجولة كلها، و كل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحزمونه السراويل فيلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعدي احد منهم في نازلة تنزل به، ولهم في ذلك مذاهب عجيبة، و إذا اقسم احدهم بالفتوة بر قسمه، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم، وشانهم عجيب في الأنفة و الائتلاف[3].

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، أشار الرحالة الأندلسي ابن جبير إلى تحصن الإسماعيلية في بلاد الشام بعدد من المعاقل و قد وصفها بأنها " حصون الملاحدة الإسماعيلية " التي تمثلت في راشد الدين سنان بن سليمان الذي تولى قيادة الإسماعيلية هناك لأمد طويل بلغ ثلاثين عام { 559 هـ / 589 هـ } و أضاف أن هذه الطائفة الهت راشدا هذا واصفا إياه انه شيطان من الإنس[4].

و نجد كذلك الرحالة ابن سعيد المغربي قد القى الضوء على العناصر الشيعية في بلاد الشام في القرن السابع هجري / الثالث عشر ميلادي لا سيما الإسماعيلية و النيصرية ، فالنسبة للإسماعيلية أشار إلى انه يتصل بجبل الإسماعيلية، و على نفس مذهبهم العقائدي جبل السماق وتكثر به العناصر الإسماعيلية، و قد عبر عن تلك الكثافة السكانية لأصحاب ذاك المذهب بقوله:" هو ملان بالإسماعيلية " ومن ناحية أخرى عندما تعرض لمدينة سلمية، لم يفته ان يذكر تاريخها و دورها في بداية الدعوة الإسماعيلية، فقد ذكر انه خرج منها عبد الله المهدي فأقام دعوتهم في بلاد المغرب ثم تولى أمرهم إلى أن أزال دولتهم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي [5].

[1] ابن جبير مصدر سابق ص 252

[2] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 297

[3] ابن جبير ، مصدر سابق ص 252

[4] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 299

[5] نفسه، ص 189

و إلى جانب الإسماعيلية، نجد أن الرحالة ابن سعيد المغربي قد سلط الضوء على النصيرية و عمل على تحديد موقعهم الجغرافي، إذ انه أشار إلى جبل النصيرية الذي يظهر قائما على جبلة و اللاذقية، وقد أوضح أنهم ينسبون إلى نصير مولى الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – كما انه تعرض إلى بعض عقائدهم الباطلة مثل: تصورهم أن الشمس وقفت له كما وقفت ليشوع بن نون، وأنهم غالوا في تأليهه، وقد قدم إشارة هامة لتوزيعهم الجغرافي، عندما أوضح أنهم يوجدون أيضا في جزيرة عانا، من طرف الجزيرة التي إلي العراق على حد تحديده، أي أن وجودهم الجغرافي تجاوز الشام واشتمل على مناطق في العراق أيضا[1].

كما حرص الرحالة ابن جبير على إيراد بعض الجوانب الخاصة بالعادات والتقاليد الاجتماعية في بلاد الشام، سواء عند المسلمين أو الصليبيين ، على نحو أدى إلى إثراء رحلته بصورة واضحة.

و من ذلك، تناوله لعادات الدماشقة في الاجتماع بصحن المسجد المكرم، و قرر انه متفرجهم و متنزههم كل عشية، بحيث تراهم فيه ذاهبين و راجعين من شرق إلى غرب من باب جيرون إلى باب الوريد، فمنهم من يتحدث مع صاحبه، و منهم من يقرا، ولا يزالون على هذه الحال من ذهاب و إياب حتى انقضاء صلاة العشاء، ثم ينصرفون و لبعضهم بالغداة مثل ذلك، وأكثر الاحتفال إنما هو بالعشي، وأشار ابن جبير انه يخيل لمبصر ذلك إنها ليلة السابع والعشرون من رمضان المعظم، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم، و هم على هذه الحال كل يوم[2].

و لم يكتفي ابن جبير بذكر جانبهم البهيج و احتفالهم فقط، بل أشار أيضا إلى عادات الدماشقة في جنائزهم، و نتركه يشرح لنا بقلمه فيقول: و لأهل دمشق و غيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة و ذلك أنهم يمشون أمام الجنازة بقراء يقرؤون القران بأصوات شجية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا يرفعون أصواتهم بها، فتتلقاها الأذان بادمع الأجفان، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة فلابد لكل جنازة من الجامع فإذا انته والى بابه قطعوا القراءة، و دخلوا إلى موضع الصلاة عليها، إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سندته، فان الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه في القراءة إلى موضع الصلاة عليه[3].

كما تعجب ابن جبير كثيرا من أمر المشارقة في مسالة تعظيمهم للحاج على الرغم من قرب مسافة الحج منهم، وتيسر ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم و يتهافتون عليهم تبركا بهم

[1] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ، ص 189

[2] ابن جبير، مصدر سابق ص 239

[3] عبد الرحمان حميدة، مرجع سابق ص 431

و يقول انه من اغرب ما حدثناه من ذلك، أن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام ، الذي هو عام ثمانين و خمس مائة هجرية خرج الناس لتلقيهم الجم الغفير رجالا و نساءا ، يصافحونهم و يتمسحون بهم، و اخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، و اخرجوا إليهم الأطعمة، و يقول انه اخبره من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج و يناولنهم الخبز، فإذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم و تبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له و دفعن له عوضا عنه دراهم، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة التي لم يعتد عليها في المغرب حسب قول ابن جبير[1].

و من عادات أهل دمشق كذلك أنهم يقفون يوم عرفة اثر صلاة العصر في جوامعهم، هي عادة تجرى كل سنة، و يقف بهم ائمتهم كاشفي رؤوسهم داعين إلى ربهم التماسا لبركة الساعة كما يصافحون بعضهم اثر كل صلاة، فان لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الإيمان و تستوهب لهم من الله الغفران [2].

كما أفاض الرحالة الشهير ابن بطوطة في الحديث عن دمشق و من أطرف حديثه عنها ذكره للأوقاف المخصصة للأمور الاجتماعية، ونتركه يسرد لنا بلسانه فيقول: و الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها و مصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، و منها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، و هن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف افتكاك الأسرى المسلمين، و منها لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون وما يلبسون و يتزودون لبلادهم، و منها أوقاف على تعديل الطرق أرصفتها، لان أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون و يمر الركبان بين ذلك، و منها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير[3]. و أضاف ابن بطوطة أن أهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون عليهم بالأموال والأهلين والأولاد [4].

كما تعجب ابن جبير أيضا لأمر النصارى المجاورون لجبل لبنان وذلك انه إذا راو بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت و أحسنوا إليهم، و يقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم

[1] ابن جبير ، مصدر سابق ص 259

[2] بلال سالم الهروط ، صورة الأخر في أدب الرحلات الأندلسية ، أطروحة دكتوراه ، قسم اللغة العربية ، عمادة الدراسات العليا ، جامعة مؤتة ، العراق ، 2008 م ص 104

[3] عبد الرحمان حميدة، مرجع سابق ص 264

[4] نفسه ص 265

مضيفا ان هذا الجبل يعد من أخصب جبال الدنيا، و توجد فيه جميع أنواع الفواكه، وفيه المياه المطردة الظلال الوارفة، و قلما يخلو من التبتيل و الزهادة [1].

و إضافة إلى ما سبق نجد ابن جبير يصور لنا أوضاع المسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبي، وفي ذلك أوضح أن المسلمين يؤدون للصليبيين نصف الغلة كما أن هناك جزية على كل رأس بالغ، تبلغ دينارا و خمس قراريط كما أن هناك ضريبة على التجار، و باستثناء ذلك فان مساكن المسلمين بأيديهم و جميع أموالهم متروكة لهم[2].

ويقرر انه أسلوب الصليبيين في التعامل مع من هم تحت سيطرهم من مدن الساحل الشامي.

والجدير بالذكر أن الوضع السابق الذي أشار إليه ابن جبير لا ينبغي أن يجعلنا نتصور أن المشروع الصليبي قد نجح في المزج بين الصليبيين و المسلمين في نسيج واحد، و ذلك لان الصليبيين نظروا باستمرار نظرة شك وارتياب وحذر من المسلمين الخاضعين لهم، و يعود السبب الذب أدى بهم إلى إبقائهم في المنطقة هو احتياجهم إلى الخدمات التي يقدمونها و خاصة في مجال الزراعة.

كما تجدر بنا الإشارة إلى أن الوضع الذي اخصه ابن جبير بالذكر لا يتسم بالطابع العام لكافة المسلمين الخاضعين للسيطرة الصليبية، و من الأمور الجديرة بالذكر التي أوردها إليها الرحالة *بنفسه ، انه أشار إلى جانبين هامين هما، أولا: وضع أسرى المسلمين في مدينة عكة الخاضعة للصليبيين و هم يرسفون في القيود، و يصرفون في الأعمال الشاقة تصريف العبيد، و حتى الأسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد، فتفطر لهم القلوب و لا يغني الإشفاق عنهم شيئا*[3].

ثانيا: تذمر ابن جبير كثيرا وشعوره بالمرارة لتواجده داخل نطاق السيطرة الصليبية، على الرغم من انه مجرد زائر لمدة أيام قليلة فقط، فما بالك من اضطر إلى الإقامة الدائمة، و قد ضاق ذرعا بمظاهر الصلبان، و وجود الخمور والخنازير وجميع أنواع المحرمات بنص تعبيره، ناهيك عن مظاهر الانحلال الخلقي داخل المجتمع الصليبي ذاته، و قد أورد ابن جبير عبارة ذات دلالات عميقة من اغتراب المسلم داخل الوجود الصليبي، عندما أبدى ندمه الشديد على تورطه بزيارة تلك المناطق، و قدم نصيحة عامة لكل من يفكر أن يشد الرحال إلى هناك

[1] ابن جبير، مصدر سابق ص 260

[2] نفسه، ص 275

[3] نفسه، ص 280

قائلا: فالحذر الحذر من دخول بلادهم و الله تعالى المسؤول حسن الإقامة و المغفرة من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم و لم تتداركها إلا بعد موافقة الندم[1].

و نستخلص من خلال إشارات ابن جبير أن تعامل الصليبيين اتجاه المسلمين و ترك أملاكهم بيدهم، تعتبر محدودة على فئة معينة تتماشى و مصالحهم و لا يمكن تعميمها على جميع المسلمين.

كما لم يتوانى ابن جبير عن نقد بعض مظاهر السلوك التي يرى أنها غير سليمة أو أنها لا تتماشى و ذوقه ،ألا و هي كثرة " التمويل و التسويد و امتثال الخدمة و تعظيم الحضرة " و قال انه: إذا لقي احد منهم آخر مسلما يقول له: جاء الملوك، أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام و وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع و خفض، و بسط و قبض و ربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط و آخر يقوم، كما سخر أيضا من عمائم أهل دمشق قائلا: أنها تهوي بينهم في سلامهم هويا، كما لم يرضى عن بعض ما شاهده من عادات أهل الشام و ذلك انهمك انو يمشون و أيديهم إلى الخلف قابضين بالواحدة على الأخرى، و يركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بالأسرى، و لعل السبب العائد إلى هذا النقد أن ما رآه كان مخالفا لعادات الأندلسيين[2].

ومن جهة أخرى يلاحظ أن الجانب الاجتماعي لدى الصليبيين هو الآخر نال اهتمام الرحالة الأندلسي ،بحيث انه وصف لنا عادات النصارى في أعيادهم ومظاهر احتفالهم بها، وذكر انه كان للنصارى عيد مذكور عندهم يوافق الفاتح من نوفمبر الأعجمي، ومن مظاهر احتفالهم به، إسراج الشموع و كاد لا يخلو احد منهم صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى، من شمعة في يده و تقدم قسيسوهم للصلاة بهم في المركب ثم قاموا واحدا واحدا لوعظهم و تذكيرهم بشعائر دينهم منوها أنهم بقوا على تلك الحال الليل كله[3].

كما دعم ابن جبير رحلته بالإشارة إلى عرس إفرنجي في مدينة صور، و نتركه يعبر لنا بقلمه فيقول: و من مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في احد الأيام عند مينائها، و قد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا و نساء، و اصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، و البوقات و المزامير تضرب، و جميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين و شمال، كأنهما من ذوي أرحامها، و هي في أبهى زي و افخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة

[1] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 305

[2] صلاح الدين المنجد ، المشرق في نظر المغاربة و الاندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد ، د.ط ، بيروت ، لبنان ، د.ت ، ص 38

[3] ابن جبير ، مصدر سابق ص 286

من لباسهم على رأسها عصابة ذهب، و هي رافلة في حليها و حللها تمسي فترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر، فساروا بها حتى ادخلوها دار بعلها و أقاموا يومهم ذلك في وليمة، فاد لنا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه[1].

و الجدير بالذكر أن إشارة ابن جبير إلى هذه المناسبة يعد أمرا هاما زاد من ايجابيات رحلته ، بحيث أن إيراد هذه المناسبة يعد حدثا استثنائيا في وسط الكم الهائل من الأحداث السياسية و الحربية التي أوردها رحالة و جغرافيون ذلك العصر سواء مسلمين أو صليبيين.

المبحث الثالث: الجوانب العمرانية و الثقافية

من أحسن ما كتب الرحالة ابن جبير في الوصف وصفه للمدن و الآثار و المستشفيات و المدارس، و من ابرز عناصر الصنعة الأدبية في هذا الوصف افتتاحه الكلام عن المدن المهمة خاصة بفقرة مجملة تتزين بالسجع و الجناس، و يضيف إليها فقرة أو بضع فقرات في عبارة ادبية أنيقة، ويعود الفضل في ذلك لنشاته الأدبية[2].

بدا ابن جبير بذكر حاضرة بلاد الشام حلب و أعجب كثيرا بمبانيها و حصونها، و من قوله فيها : "هي بلدة قدرها خطير و ذكرها في كل زمان يطير ... لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه و النظير في القلاع، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة ، و مائدة في الأرض مستديرة ..." و يذهب بنا إلى وصف جامعها المكرم و يقول فيه: انه من أحسن الجوامع و أجملها، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع، مفتح كله أبوابا مغربة الحسن إلى الصحن، عددها يزيد على الخمسين بابا، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، و في صحنه بئران معينان ... و يتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا و إتقان صنعة [3].

ثم ترك ابن جبير حلب إلى حماة و حمص، و وصل إلى دمشق و استهل حديثه عنها بهذا المديح الرائع: "هي جنة المشرق، و مطلع حسنه المؤنق المشرق، و هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقرينها، و عروس المدن التي اجتليناها، فقد تحلت بأزاهير الرياحين، و تجلت في حلل سندسية من البساتين، و حلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، و تزينت في منصتها أجمل تزيين ..."[4].

[1] ابن جبير ، مصدر سابق، ص 278

[2] حسني محمود حسين، مرجع سابق ص 25

[3] شوقي ضيف، مرجع سابق ص 86

[4] ابن جبير ، مصدر سابق ص234

و يذهب بنا إلى وصف جامعها المكرم عمره الله تعالى فيقول: هو من أحسن جوامع الإسلام حسنا، و إتقان بناء و غرابة صنعة، واحتفال تنميق و تزيين، و شهرته المتعارفة في ذلك العصر تغني عن استغراق الوصف فيه، و من عجيب شانه انه لا تنسج به العنكبوت و لا تدخله، ولا يلم به الطير المعروف بالخطاف، انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله، و وجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثني عشر ألفا من الصناع من بلاده ، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك أن توقف عنه، فامتثل أمره مذعنا بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك مما هو مذكور في كتب التاريخ [1].

و مرافق هذا الجامع المكرم للغرباء و أهل الطلب كثيرة، و اغرب ما يحدث فيه أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة و الحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة و التدريس، يقول ابن جبير انه أبصر بها فقيها من أهل اشبيلية يعرف بالمرادي، و عند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم إلى سارية، ويجلس أمامه صبي يلقنه القران، و للأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به و ينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم و بكسوتهم، وهذا جزء صغير مما يحدث من مفاخر بهذا البلد[2].

كما أشار ابن جبير أيضا إلى مرافق الغرباء في هذه البلدة، وقرر أنها أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب، فالشأن في هذه البلدة لهم عجيب جدا، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، و هذا ما جعل ابن جبير يدعو أبناء بلدته في المغرب قائلا : فمن شاء منكم الفلاح من نشأة مغربا فليرحل إلى هذه البلاد و يتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة و هو اكبر الأعوان و أهمها ، فإذا كانت الهمة وجد السبيل إلى الاجتهاد[3].

و هذا النص يصور بعض النشاط العلمي الذي ازدهرت به دمشق أيام نور الدين و صلاح الدين و ليس كله فقد كان أضخم من ذلك، وكان العلم بمتناوب الجميع، بل كان الناس يجرون و يدفعون إلى العلم لكثرة ما كان بدمشق من أوقاف أوقفت على طلبة العلم و العلماء، وأما قوله أن عدد المدارس فيها كان نحو العشرين مدرسة فهو بالتقريب، فكانت العدد أكثر من ذلك[4].

[1] ابن جبير ، مصدر سابق ، ص 235

[2] نفسه، ص 245

[3] نفسه ،ص 258

[4] صلاح الدين المنجد، مرجع سابق ص 32

كما عني ابن جبير بإيراد ناحية هامة ، و نعنى بها النهضة الطبية التي وجدت في بلاد الشام في ذلك العصر و تمثلت تلك النهضة بصفة عامة في إقامة البيمارستانات في العديد من المدن الشامية، و كذلك الرعاية الطبية الكبيرة التي لقيها المرضى، وفي هذا الشأن نجد ابن جبير قد أشار إلى وجود بمارستانين للمرضى في دمشق، قديم و آخر حديث، وقرر أن الحديث اكبر وأكثر فخامة، و ذكر أيضا أن هناك نظاما محددا في استقبال المرضى، و تسجيلهم في سجلات و ثم تدوين ما يحتاجونه من أغذية و أدوية [1].

زد على ذلك، أن رحلة ابن جبير عنيت عناية خاصة بتتبع ظاهرة تعليمية هامة عاشتها بلاد الشام في ذلك العصر، ألا و هي ظاهرة المدارس، و تجدر الإشارة أن ذلك العصر عرف انه عصر المدارس، التي انتشرت في كافة أنحاء بلاد الشام كجزء من انتشارها في العديد من أقاليم الشرق الأدنى كجزء من حركة تعليمية ناهضة و كتعبير عن حركة الاجتهاد السني التي كانت من خلال تلك المؤسسات التعليمية، و في هذا المجال نجد أن المدارس، و الجوامع و الكتاتيب ، تقوم بدورها الهام في المجال التعليمي و التثقيفي من اجل إخراج كوادر مدربة يمكنها التصدي للمد الشيعي الإسماعيلي، و حتى يتمكن المسلمون من التمسك بدينهم أكثر من قبل في عصر شهد الصراع القائم بين الإسلام و المسيحية[2].

أما فيما يتصل بالساحل الشامي نجد أن ابن جبير قد تطرق لعدد من المدن الساحلية، نذكر منها مدينة عكة، و هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، و محط الجواري المنشات في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة ملتقى تجار المسلمين و النصارى من جميع الآفاق، سككها و شوارعها تغض بالزحام ، و تضيق فيها مواطئ الأقدام و هي المدينة التي شبهها ابن جبير بالقسطنطينية، و هي المدينة التي انتزعها الصليبيون من أيدي المسلمين في العشر الأول من المئة السادسة للهجرة ، فبكى لها الإسلام ملئ جفونه ، و كانت احد شجونه ، فعادت مساجدها إلى كنائس و صوامعها مضارب للنواقيس، و أضاف ابن جبير انه طهر الله عز و جل من مسجدها الجامع بقعة بقيت في أيدي المسلمين مسجدا صغيرا، و يمكن وصف ابن جبير على انه شاهد عيان عايش تلك الحقيقة المرة ألا و هي السياسة التنصيرية [3].

ثم توجه بعدها ابن جبير إلى مدينة صور واصفا إياها أنها : مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لا تلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، أعدها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم، و جعلوها مثابة لأمانهم، و أما حصانتها و مناعتها فأعجب ما يحدث به، و ذلك أنها راجعة إلى بابين: احدهما في البر و الأخر في البحر، و هو

[1] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 301

[2] نفسه، ص 300

[3] ابن جبير، مصدر سابق ص 276

يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البحر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب، و أما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعا منها [1].

بالإضافة إلى ذلك فابن ابن جبير لم يكتفي بذكر مدن الساحل الشامي فقط ، بل انه يعقد المقارنة بينها على نحو عمق رؤيته لها، و من أمثلة على ذلك انه عقد مقارنة بين صور و عكة، و يبدو أن المدينة الأولى قد كانت اقل في إشعاره بالاغتراب، فامتدحها إذا ما قورنت بعكة، فقال أنها أنظف منها سككا وشوارع و أن أهلها الين في الكفر طبائع، ومنازلهم أوسع و أفسح، وأحوال المسلمين بها أهون و اسكن وعكة اكبر و أطغى و اكفر.

و تجدر الإشارة إلى أن عقد المقارنة بين المدن الشامية في ذلك العصر لا نجده عند الرحالة المسلمين بتلك الصورة التي أوردها ابن جبير، و الصفة الغالبة أنهم كانوا يوردون إشارات عن كل مدينة دون عقد مثل تلك المقارنات، و من هنا تظهر لنا أهمية ذلك الرحالة الأندلسي[2].

وبالإضافة إلى العناصر التي تطرقنا إليها سابقا، لقد دعم ابن جبير رحلته بالإشارة إلى عدد من المزارات الدينية الإسلامية وحتى المسيحية منها في بلاد الشام، في عصر اشتهر بالتبرك بالقبور والأضرحة، لذلك نجده يذكر أنه بغرب دمشق جبانة كبيرة خاصة بقبور الشهداء، و فيها عدد وافر من قبور الصحابة التابعين و من القبور المشهورة هناك قبر أبي الدرداء و أم الدرداء، و قبر فضالة بن عبيد و سهل بن النظامية و هما من الذين قاموا بمبايعة الرسول – صلى الله عليه و سلم – تحت الشجرة، و كذلك قبر خال معاوية بن أبي سفيان، و أما في مدينة حمص أشار إلى قبر خالد بن الوليد و كذلك قبر ابنه عبد الرحمان و قبر عبيد الله بن عمر[3].

وفي حلب نجده يقرر انه كانت قديما في الزمان الأول ربوة يأوي إليها إبراهيم الخليل –عليه الصلاة و السلام – بغنيمات له فيحلبها هناك و يتصدق بلبنها، و يقول انه لهذا السبب سميت المدينة "حلب" و الله اعلم، و انه يوجد بها مشهد كريم يقصده الناس و يتبركون بالصلاة فيه [4].

كما أورد بعض المزارات الخاصة بالمسيحيين، و من ذلك إشارته إلى كنيسة مريم الموجودة في مدينة دمشق، و قد ذكر أمر مكانتها العالية في نفوسهم، و أوضح تفوق عمارتها و الصور الموجودة بها، والناحية الهامة التي

[1] ابن جبير، مصدر سابق ، ص 277

[2] محمد مؤنس عوض ، مرجع سابق ص 289

[3] بتول كامل مزهر الياسري ، الجغرافيون و الرحالة العرب في القرنين 6 و 7 هـ ، تخصص الجغرافية ، جامعة سانت كليمنتس العالمية للدراسات العليا ، بغداد ، العراق ، 2014 م ، مرجع سابق ص 189

[4] ابن جبير، مصدر سابق ص 226

أشار إليها أنها بأيدي الروم وانه لا اعتراض عليهم، و أتت تلك الأسطر لتعبر عن التسامح الديني الذي عاش خلاله المسيحيون تحت الحكم الإسلامي في مدن بلاد الشام، على الرغم من استعار العداء بين المسلمين و الغزاة الصليبيين الذين غزو المنطقة تحت شعار الصليب، وبقاء أماكن عبادتهم دون أن تمس بالأذى أو طمس المعالم[1].

المبحث الرابع: اوضاع المغاربة في بلاد الشام

لم يقف الرحالة ابن جبير في رحلته إلى بلاد الشام عند الحديث عن أوضاع هذا البلد وأهله فقط بل انه تطرق أيضا إلى أوضاع الغرباء في ذلك البلد ولا سيما أبناء جلدته من المغرب، الذي من الملاحظ أنها كانت فئة كبيرة تركوا أوطانهم و سافرو إلى بلاد الشام على الرغم من بعد المسافة.

وأول ما أشار إليه ابن جبير أن المغاربة شاركوا في قضية الجهاد ضد الصليبيين، مع إخوانهم في بلاد الشام، و وقع الكثير منهم في الأسر، ولا شك في أن اشتراكهم في الحرب قد جر عليهم عداء الصليبيين، لذا عملوا على فرض ضريبة زائدة على المغاربة على نحو خاص، وذلك عقابا لهم على مشاركتهم في تلك القضية المقدسة ، و هذا دليل ان قضية الجهاد ضد الغزو الصليبي لم تكن مشرقية فقط بل مغربية كذلك [2].

و يضيف ابن جبير في هذا الصدد انه من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفرنجية أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية و سواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وانه لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم.

وأشار أيضا إلى اهتمام الملوك وأصحاب النفوذ بهذه الطائفة، فالملك نور الدين رحمه الله نذر في مرضة قد أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة، فلما قام من مرضه أرسل في فدائهم، وقال انه عندما علم انه سيق نفر ليسو المغاربة، أمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال هؤلاء يفتكهم أهلهم و جيرانهم، و المغاربة غرباء لا أهل لهم[3].

ويقول أن الله عز وجل قيض لهؤلاء المغاربة بدمشق رجلين من مياسر التجار و كبارهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء، احدهما يعرف ب " نصر بن قوام " و الثاني ب " بابي الدر ياقوت مولى العطافي " لهم في الغنى شان كبير، وأمرهم عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وأن الله عز وجل نصبهما لافتكاك الأسرى المغاربة

[1] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 303

[2] نفسه، ص 295

[3] ابن جبير ، مصدر سابق ص 280

بأموالهما الخاصة و أموال ذوي الوصايا، و ذلك لما اشتهر من أمانتهما و ثقتهما و بذلهما أموالهما في هذا السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما[1].

و لقد اندهش ابن جبير من حب أهل دمشق للمغاربة، ومن الميزات التي منحت لهم، فيحدثنا أن الطلبة المغاربة كان لهم زاوية خاصة في الجامع الأموي يتعلمون فيها و تجرى عليهم الأموال، وان علماء المغاربة كانوا يستقبلون في المدارس ليعلموا أو في المساجد ليؤموا، و انه شاهد رجلا من بقية المرابطين كان أمينا للربوة – و الربوة ضاحية من ضواحي دمشق جميلة – له مكانة عند السلطان و وجوه الدولة، فكان يؤوي أهل المغرب بهذه الجهات و يسبب لهم وجوه المعايش، و ذكر أن الدماشقة أحسنوا الظن بالمغاربة و سلموا إليهم الكثير من الأعمال و قال:" لأنه قد علا لهم في هذا البلد صيت في الأمانة، و طار لهم فيها ذكر[2]".

و ذكر انه من مناقب السلطان نور الدين محمود رحمه الله، انه عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافا كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وارض بيضاء وحمام و دكانان بالعطارين و يقول ابن جبير انه اخبره احد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه، و هو أبو الحسن علي بن سردال الجياني المعروف بالأسود، أن هذا الوقف يجني أذا كان النظر فيه جيدا، خمس مئة دينار في العام، و يذكر أيضا أن نور الدين رحمه الله هيا لهم ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز و جل [3].

و من الأمور السلبية التي أشار إليها ابن جبير في رحلته انه في طريقه من دمشق إلى عكة لقي رجل مغربي من ضعاف الإيمان، كان أسيرا و تخلص على يدي أبي الدر، فصاحب النصاربو تخلق بأخلاقهم و وصل به الأمر إلى أن ارتد عن الإسلام و اعتنق المسيحية، و ذكر انه من بونة من أعمال بجاية [4].

و هذا دليل أن ابن جبير كان يمتلك قدرا كبيرا من الموضوعية، ولا يتصف بالنظرة الأحادية و لا أدل على ذلك من انه لا يكيل المديح و الثناء للمغاربة بصفة مستمرة، فهو يذكر الايجابيات و السلبيات معا [5].

[1] ابن جبير، مصدر سابق، ص 281

[2] صلاح الدين المنجد، مرجع سابق ص 33

[3] ابن جبير، مصدر سابق ص 257

[4] نفسه،ص 281

[5] محمد مؤنس عوض، مرجع سابق ص 295

الخاتمة

ومن خلال ما سبق ذكره والتطرق إليه يمكن القول أن دراسة الأوضاع في مصر وبلاد الشام من خلال رحلة ابن جبير الأندلسي أوضحت العديد من النتائج نلخصها في النقاط التالية:

-أظهرت لنا شخصية رحالتنا ومزاجه ونفسيته من خلال ما كتبه عن الشام ومصر فظهرت لنا شخصيته الانتقادية عند ذكره لبعض عادات المجتمع المصري والشامي.

-اعتماد الرحالة ابن جبير عند عملية الوصف في رحلته بالدرجة الأولى على المشاهدة والملاحظة المباشرة دون الاعتماد على كتب المصادر الأخرى.

-كانت إشارات الرحالة إلى الحياة السياسية قليلة جدا على الرغم من أن الفترة الزمنية التي وجد فيها الرحالة في مصر والشام حافلة بأحداث سياسية سواء خارجية من مواجهة صالح نجم الدين الأيوبي، الحملة الصليبية السابعة والمماليك مع الصليبيين والمغول أو على نطاق داخلي من خلافات بين البيت الأيوبي و كذالك في داخل بيت ال زنكي و الصراعات بين الأمراء والمماليك على السلطة، ويرجع ذلك إلى قصر فترة المكوث الرحالة في مصر والشام، وثانيا لأن الرحالة في المقام الأول كحاج يلفه نظر المدى اهتمام السلطان بالحجاج والخدمات المقدمة لهم.

-أشار ابن جبير إلى الحياة الاجتماعية فوصف لنا المجتمع المصري والشامي وذلك من حيث عاداتهم في الجنائز واحتفالاتهم في الأعراس والأعياد وأيضا استقبال الحجاج والتبرك بهم، وكان أبرز ما في رحلته وأروعه حديثه عن دمشق ومصر في ذكر نظام الأوقاف الذي كان موجود بهما وفضائل أهلها من الكرم والضيافة لديهم وخاصة في شهر رمضان المبارك، وتعميرهم للمساجد والمدارس، والإحسان إلى الغريب مع تقديم العون والمساعدة لهم، كما أشاد ابن جبير بالمدارس والمساجد وما كان عليه الجامع الأموي وجامع الإسكندرية من إمارتهما برجال العلم والعلماء، وطلبة العلم والقراء، وهذه الصورة الجميل عكست لنا أهم مظاهر الحياة في المجتمع الشامي والمصري، فهي صورة متكررة في أغلب مدنهما.

-أمدتنا الرحلة بمعلومات عن الأحوال الاقتصادية وبأنها في حال مزدهر كما أشاد ابن جبير بالصناعات التي تنتجها كلا من مدن مصر والشام وكيف كانت علاقتهما التجارية بينهم وبين النصارى رغم اشتعال الحروب بين الطرفين، كما اشتكى هذا الرحالة من ظاهرة الاحتكار التجاري ووضع دور السلطان في تدعيم هذا الاحتكار وأمدتنا هذه بمعلومات عن أهم مراكز التسويق والتخزين السلع في مصر والشام.

-أشارت الرحلة إلى مدى ازدهار الحياة العلمية والدينية في إقليمي الشام ومصر، واهتمام السلاطين بإنشاء المدارس الكثيرة ليس في المدن فقط بل حتى في القرى و المداشر وكذلك مساهمة السلاطين في تلك النهضة العلمية، كما وضح لنا دور المغاربة في تعليم وتفسير القرآن والحديث وكثرة حلقات العلم والعلماء، كما ازدهرت العلوم الدينية وذلك من خلال إنشاء المساجد والكتاتيب.

-أوضحت لنا الرحلة مدى اهتمام سلاطين الشام ومصر بالعمارة خاصة الحربية منها، نظرا للوضع السياسي القائم، و أيضا إقامة العديد من المارستانات بسبب اشتعال الحروب.

أعطت لنا صورة عن الجانب العمراني وما كانت تتمتع به هذه المدن من عمران والطرق التي أنجزت بها، والتي جعلت كل من يزورها يتمتع بجمالها ومناظر مدنها كتجديد الجامع الأموي ومنارة الإسكندرية .

وفي خاتمتنا لهذه الدراسة نرجو أن يكون هذا العمل قد ألقى الضوء ولو على جزء بسيط من أحوال مصر والشام، وما هذا إلى جهدنا وحصيلة دراستنا وما فيها من صواب فهو من فضل الله وكرمه، وما كان فيها من زول وتقصير فهو من هفوات النفس والكمال لله، وحسبنا أننا توخينا الدقة والصواب وبذلنا جهدنا وطاقتنا في ذلك ونستغفر الله العظيم المعين الحق الرحيم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الملاحق

دينار أيوبي ضرب القاهرة (الملك الكامل أبوالمعالي محمد بن أبي بكر)

دينار أيوبي ضرب القاهرة سنة ٥٥٨هـ (يوسف بن أيوب)

شكل رقم (1) النقود في العصر الأيوبي[1]

(1) محمد عمر نتو: النقود الإسلامية شاهد على التاريخ، ص101.

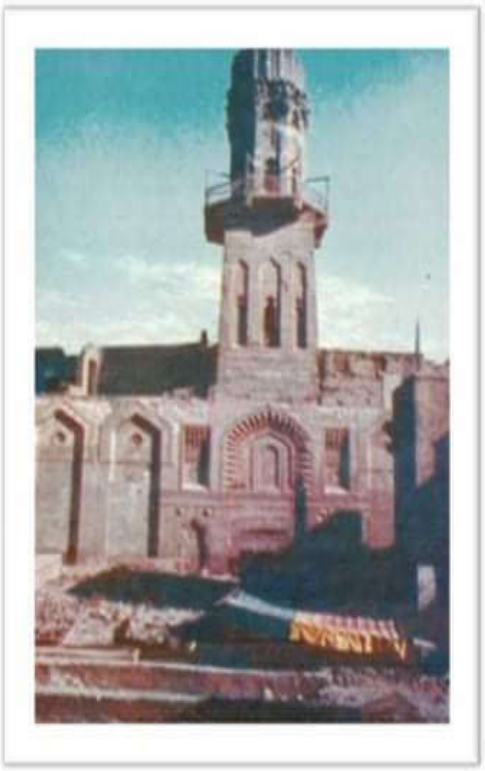

شكل رقم (3) المدرسة الصالحية في القاهرة[1]

(1) أحمد عبد الرازق: العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، ص 505.

شكل رقم (4) الجامع الأزهر، منظر خارجي من الجهة الغربية [1]

شكل رقم (5) الجامع الأزهر، الرواق الغربي [2]

(1) أحمد عبد الرازق: العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، ص473.

(2) أحمد عبد الرازق: المرجع السابق، ص475.

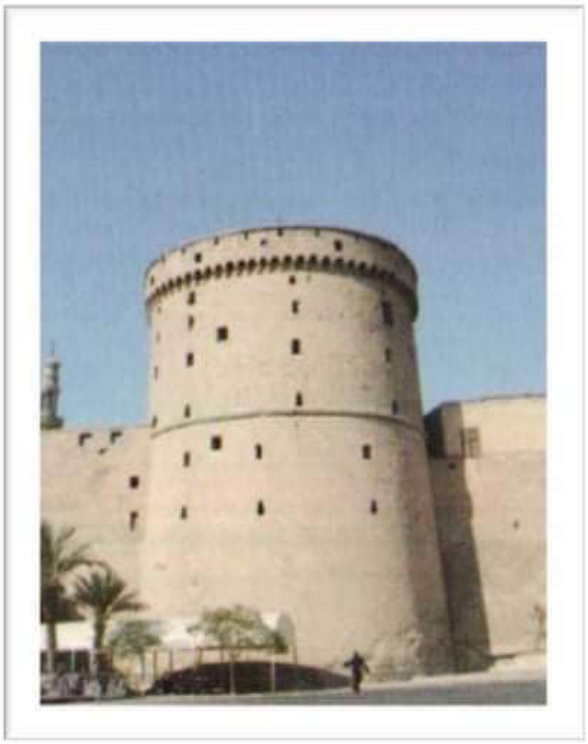

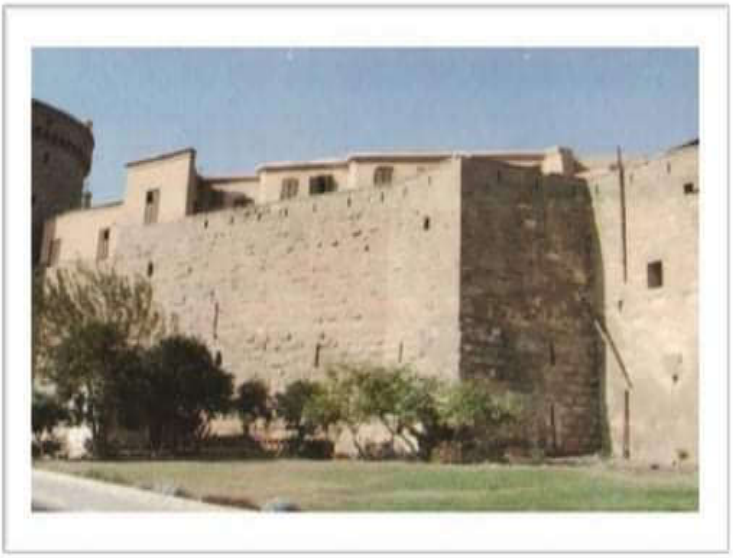

شكل رقم (8) قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) السور الجنوبي[1]

(1) أماني بنت سعد الحربي، المرجع السابق، ص 376.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع:

أ- المصادر:

1- ابن الأثير محمد بن عبد الكريم، **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، ط 4، مجلد10، بيروت، لبنان، ج 9، سنة 2003 م.

2- ابن جبير أبو الحسن محمد بن احمد، **تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار(رحلة ابن جبير)** دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

3- العبدري أبو عبد الله، **رحلة العبدري**، دار سعد الدين للطباعة و النشر و التوزيع، ط 2 ،تح : علي إبراهيم الكردي ، تق : شاكر الفحام ، د.م.ن ، 2005 م .

4- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تقد: مر: تع: بوزيان الدراجي ، دار الأمل للدراسات و النشر و التوزيع ، القسم الثاني ، الجزائر ، 2009 م .

5- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، **رحلة ابن خلدون**، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1، 2004 م .

ب- المراجع:

*** الكتب العربية:**

1- علي بن عبد الله الدفاع، **رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية**، مكتبة التوبة، د. م . ن ، د . ط ، د . ت .

2- احمد رمضان احمد، **الرحلة و الرحالة المسلمون**، دار البيان المغربي للطباعة و النشر، د.ط ، د.م.ن ، د.ت .

3- عبد الرحمان حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب و مقتطفات من آثارهم**، دار الفكر، دمشق و سوريا، ط 1، سنة 1984 م.

4- عز الدين عمر موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم و نظمهم**، دار الغرب الإسلامي ، د.ط ، د.م.ن ، د.ت .

5- حسني محمود حسين، **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، ط 2، بيروت، لبنان، سنة 1984 م.

6– الشقيري محمد علم الدين، **صورة مصر عند رحالة بلاد العرب والأندلس من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة**، دار فرحة للنشر و التوزيع، ط1، المنيا، مصر، 2005 م.

7– أسر الدين محمد،**رحلة ابن بطوطة**، الرباط، المغرب، مجلد (1)، 1997م .

8– محمد حرب، **الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة**، دار الآفاق العربية، ط1، 2006م .

9– حسين نصار، **النجوم الزهراء في حلى حضرة القاهرة**، دار طبعة الكتب1970م.

10- شوقي ضيف، **الرحلات**،دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، د.ت .

11– محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي، **رحلة الشتاء والصيف،د.د.ن**، ط1، 2012 م.

12- أحمد حدادي، **رحلة ابن رشيد السبتي**، ج1،د.م.ن،د.ط، 2003م.

13- سعيد عبد الفتاح عاشور، **الأيوبيون و المماليك في مصر و الشام**، دار النهضة العربية للطبع و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 1996 م.

14- محمد مؤنس عوض، **الجغرافيون و الرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، ط 1، عين للدراسات و البحوث، د.م.ن ، 1995م.

15- صلاح الدين المنجد، **المشرق في نظر المغاربة و الأندلسيين في القرون الوسطى**، دار الكتاب الجديد، د.ط، بيروت، لبنان، د.ت .

*** الكتب المعربة:**

1– انخل جنثالث بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، تر : حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية،ط 1، القاهرة، مصر، 1928 م .

2– كراتشوفسكي اغناطيوس يوليانوفيتش، **تاريخ الأدب الجغرافي**، تر : صلاح الدين عثمان هاشم، دار الثقافة في جامعة الدول العربية، د.م.ن ، د.ط ، 1997 م.

3– يوسف أشباح، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين**، تر: و تع : محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط 2، القاهرة، 1996 م.

4– محمد حرب، **الرحلة إلى مصر و الشام و الحبشة**، تص: أوليا شلبي، تر: حسين مجيب المصري آخرون، مر: ماجدة مخلوف، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1 ، د.ت.

المجلات:

1– مسعد محمد عبد الله، مجلة كلية الآداب، **أسواق المغرب الأقصى عصر دولة الموحدين** العدد 29، يوليو 2012 م، قسم التاريخ و الحضارة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالإسماعيلية، جامعة قناة السويس، مصر.

الرسائل الجامعية:

1– بلال سالم الهروط، **صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية**، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، عمادة الدراسات العليا، جامعة مؤتة، العراق، 2008 م.

2– مزوزية حداد، **سياسة الدولة الموحدية من خلال الرسائل الديوانية**، أطروحة ماجستير، قسم التاريخ و علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية و الإسلامية، جامعة الحاج لخضر – باتنة – الجزائر، 2012 م .

3– بغداد غربي، **العلاقات التجارية للدولة الموحدية**، أطروحة دكتوراه، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية، جامعة – وهران 1- (الجزائر) 2014 م.

4– أماني بنت سعد الحربي، **مصر من خلال كتابات الرحالة المغاربة في القرنين السابع و**

الثامن هجري، أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي،قسم الدراسات العليا التاريخية،

كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية،جامعة أم القرى، السعودية، 2015م .

فهرس

الموضوعات

شكر و تقدير
إهداء
مقدمة.....أ- د
الفصل الأول: ترجمة الرحالة ابن جبير ودراسة رحلته
المبحث الأول: ترجمته..... 12
أ- تعريفه..... 12
ب- مولده ونسبه..... 12
ج- تعليمه..... 12
د- أخلاقه وصفاته..... 13
هـ- مؤلفاته 14
و- وفاته ..... .14
المبحث الثاني: العصر الذي عاش فيه ابن جبير 15
أ- الجانب السياسي والحربي 15
ب- الجانب الاقتصادي 18
ج- الجانب الاجتماعي.....21
المبحث الثالث: دراسة رحلة ابن جبير..... 23
أ- أسباب الرحلة 23
ب- طريق الرحلة.....24
ج- أهمية الرحلة.....25
الفصل الثاني: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر من خلال رحلة ابن جبير
المبحث الأول: الأوضاع السياسية.....31
المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية.....35
أ- الزراعة 35
ب- التجارة.....37
ج- الصناعة.....38
المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية والجانب الديني.....40

أ- الأوضاع الاجتماعية 40
ب- الجانب الديني.....44
المبحث الرابع: الجانب العمراني.....46
الفصل الثالث: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام من خلال رحلة ابن جبير
المبحث الأول: الأوضاع السياسية والحربية.....51
المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.....53
أ- الأوضاع الاقتصادية.....53
ب- الأوضاع الاجتماعية.....57
المبحث الثالث: الجوانب العمرانية والثقافية.....63
المبحث الرابع: أوضاع المغاربة في بلاد الشام 67
خاتمة.....70
الملاحق.....73
قائمة المصادر والمراجع.....78
فهرس الموضوعات.....82